إِريك لوران

حرب كوسوفو

الملفُّ السرِّيّ



عويدات
بيروت

الأوديسّيه للثقافة والإعلام

رئيس التحرير : هنري زغيب

مديرة التحرير : مُنى غزال

سكرتيرة التحرير : جوسلين بو راشد

حرب كوسوفو

الملفُّ السرِّيّ

إريك لوران

حرب كوسوفو

الملفّ السرّيّ

ترجمة

الأوديسّيه للثقافة والإعلام

عويدات للنشر والطباعة

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى 1999

المقدمة

هذا الكتاب يروي مأساةً، بل فاجعةً، كان جميع المراقبين والخبراء المتنوّرين يرونها واقعةً حتماً، وأكثر: مبرمجة.

عن مثَلٍ قديم: "البشر يعرفون أنهم يصنعون التاريخ، لكنهم لا يعرفون أيَّ تاريخٍ يصنعون". وما جرى في كوسوفو يثبت هذا المثَل بشكلٍ قاسٍ.

خلال حرب الخليج كان على رأس الحكم في واشنطن وباريس ولندن وبون مسؤولونَ جميعُهم من جيلٍ عاش الحرب العالمية الثانية. أما هنا فصفحةٌ جديدةٌ كليّاً: كلينتون، بلير، شرودر، سولانا، مولودون في معظمهم بعد 1945، وها هم يواجهون مشكلةً تعود الى القرن الرابع عشر، في نهاية قرنٍ يتباهَون بتحضير شعوبِهم لوداعه واستقبال قرنٍ جديدٍ وألفٍ ثالث. فكانَ أن ردُّوا على صداماتٍ إتنيةٍ بحربٍ "أخلاقية" مستخدمين من "حلف شمال الأطلسي" قوةً عسكريةً متفاوتةً وغيرَ متكيِّفة، وفي جلّها ضارية عمياء.

قبل إطلاق الغارات الجوية الأولى ضدّ صربيا، أعلن الرئيسُ الأميركي بيل كلينتون غير مرةٍ لمعاونيه داخل مكتبه البيضَوي في البيت الأبيض: "قد لا يكون الشعب الأميركي يعرف كلَّ شيءٍ عنّي، لكنه على الأقلّ يعرفُ أنني لا أحب استخدام القوة العسكرية". ومن جهة أخرى، كان طوني بلير يعلن في لندن: "هذه أول مرّةٍ يواجه فيها أبناء جيلي حتميةَ استخدام القوة لفرض ما يجب أن يكون".

وهما بذلك، على نقيض ريمون آرون، لا يعتبران التاريخ مأساوياً، ويريدان أن يكون العالم أخلاقياً. وهذا طموحٌ محمود، لكنّ أهداف الوصول

إليه ملتبسة. فعام 1969 كان طوني بلير يتظاهر في أكسفورد ضد حرب فيتنام، ومثله كان يفعل كلينتون في الولايات المتحدة، ومثلهما شرودر (المستشار الألماني) ووزير خارجيته قائد "الخضر" يوشكا فيشر. أما الإسباني خافيير سولانا (أمين عام قوات "حلف شمال الأطلسي" التي تسيطر عليها الولايات المتحدة) فكان دائماً ضد أيّ شكلٍ من الالتزام العسكري، ولم يكن يرى إلاّ عدواً واحداً: الإمبريالية الأميركية.

هؤلاء المسالمون السابقون، إذ وُوجهوا بتجربتهم على المحك أمام أحداث إقليم كوسوفو (حدّده خبير في البنتاغون على أنه "أصغر من ولاية كنتاكي، وذو ظرفٍ شبيه ببرمانيا") راح هذا الإقليم يشكل لهم قلقاً مضنياً، ولبعضهم كابوساً شبيهاً بشبحِ تورُّطٍ أميركي في فيتنام كانوا يناوئونه قبل ثلاثين عاماً.

عن مؤرّخٍ قولُهُ عام 1952: "العالم مليءٌ بأفكارٍ أوروبية أصبحت مجنونة"، مشيراً الى الشيوعية والفاشية اللتين انتشرتا في أوروبا. لكن هذا المؤرّخ، كالكثيرين سواه، نسي الجنون الإتنيّ الذي أطلقته شعوبٌ تستعبدُها الذاكرة وتسكنها أحقاد الماضي. ومن الغريب أنّ هذا القرن الموسوم بالتطور التقني ينتهي، كما ابتدأ، مشحوناً بالتعصُّب وما يجرّه من ويلاتٍ ومصائب مرعبة.

عام 1912، فيما كان الصرب ينتزعون إقليم كوسوفو من الأمبراطورية العثمانية ويُحْكِمون سيطرتهم عليه، كتب المراسل الخاص لصحيفة أوكرانيَّة يصفُ مذبحةَ آلاف الألبان وحرقَ قراهم، ويشير الى أن جماعاتٍ من المجرمين تغلغلوا في صفوف الجيش الصربيّ ليمارسوا عمليات النهب والسلب. وقال: "في صربيا القديمة، كان للصرب هاجسُ تصحيحِ

الوضعِ الإتنيّ غيرِ الملائم، فأوغلوا في عملية إبادةٍ منظَّمَةٍ للسكان المسلمين".
ذاك الصحافي، صاحب هذا التحليل، كان اسمه: ليون تروتسكي.

في العالم كلّه اليوم، يراقبُ الرأي العامُّ طلالاً مكسورةً يجرجرها مئات الآلاف من اللاجئين. ويخطئ إن هو ملَّ فأشاح، لأن كلَّ جريمةٍ في أثناء وقوعها تركّز على ملل الآخرين وعدم اهتمامهم، وعلى أمل تمريرها مع مرور الوقت بالإفلات من العقاب. من هنا "فداحة المجازفة" كما يسمّيها المؤرّخ بول غارد في كلامه على أن "انتصار السلطة الصربية" لا يكون إلاّ في "كوسوفو محرّراً من الألبان" بالمعنى الذي كان يقصده النازيون بعبارة "بلادُنا محررةٌ من اليهود".

العقد الأخير من هذا القرن ابتدأ بحرب الخليج، وينتهي بحريقٍ جديدٍ في حزر البلقان. وبين أزمتَي البداية والنهاية شبَهٌ كبير: إبّان الحربِ ضدّ إيران، كان صدّام حسين يعتبر بلاده درعاً يحمي العالم العربي والمصالح الغربية من التوسع الفارسي، وها ميلوسيفيتش يعتبر صربيا (وهي حاربت الى جانب الحلفاء ضد النازيين) آخرَ سورٍ يصدّ التمدد الإسلامي في أوروبا.

ويبدو أن الديكتاتور العراقي والطاغية الصربي تلقّيا إشاراتٍ خاطئةً في أوقاتٍ خاطئة: اعتقدا أن الليونة في التحذيرات الغربية تتيح للأول سيطرته بدون عقاب على الكويت، وللآخر إفراغ كوسوفو من سكّانه الألبان. وخلال لقاءاتي الطويلة مع صدّام حسين وسلوبودان ميلوسيفيتش، لمست لديهما ميلاً متشابهاً الى القوة والحيلة، واحتقاراً عميقاً لإيماننا بالديمقراطية. وأبعد من ذلك (وربما هذا ما يجعلهما أكثر خطراً وغدراً) يشبهان رجالاً من الماضي يعيشان في الحاضر: اعتقدا بأنَّ وضع الغرب أمام الأمر الواقع يجعله يرضخ لفعلتهما ويشيح عن الشحنات العاطفية والقومية المتصاعدة من الأراضي المغتصبة. فبغداد كانت دوماً تناهض اقتطاع أرض

الكويت وجعلها دولة مستقلّة، وتعتبرها جزءاً عضوياً من العـراق. وكذلـك الصرب يعتبرون إقليم كوسوفو قلبَ هويتهم و"مهدها المقدّس".

ذات يوم قبل خمسةٍ وعشرين عاماً، قال أندريه مـالرو لزائـر صربـي لديه: "إحذروا إقليم كوسوفو. قد يكون مسرحاً لحربٍ جديدةٍ كحربنا مـع الجزائر. لكنها هذه المرة لن تدور على قارة أخرى، بل في قلب بلادكم".

هذا هو الواقع الذي نواجهه اليوم.

وهذا الكتاب تسجيلٌ مباشر لأحداثٍ يومية، وسردٌ لأحداث دوّامـة وتضليل: الدوامة دخل فيها قادتنا، والتضليل وقعوا فيـه حـين قفـزوا بسـرعةٍ الى فخٍّ سرعان ما انطبق عليهم جميعاً.

الفصل الأول

كان الماريشال تيتو أوجد "اتحاداً يوغوسلافياً" من ست جمهوريات وإقليمَين مستقلّين يضمان فسيفساءً إتنيةً حقيقية: 36٪ صرب، 20٪ كرُوَاتيون، 9٪ مسلمون بوسنيون، 8٪ سلوفينيون، 6٪ مقدونيون، 8٪ ألبان، والباقون "يوغوسلافيون". غير أن هذا "الاتحاد الاشتراكي من الشعوب الحرّة والمتعادلة" لم يعش بعد موت تيتو (1980) سوى سبع سنوات.

فعام 1987 بدأ الاحتضار حين رأسَ الحزبَ الشيوعيَّ الصربيَّ قائدٌ كَدِرٌ متوحِّدٌ يدعى سلوبودان ميلوسيفيتش، كان رفاقه في اللجنة المركزية يسمونه "لينين الصغير" لشدة ميله الى التسلُّط ورفضِهِ معاونةَ أحدٍ في السلطة، بتكليفٍ ولو لأقلِّ مهمة.

هو من مواليد 1941. كان مديراً لعددٍ من مؤسسات الدولة، بينها مصنع غاز، ثم مصرف صربي في نيويورك. ومن عرفوه في تلك الفترة، يصفونه صارماً مع مرؤوسيه، متزلفاً مع رؤسائه، أعزلَ من الأصدقاء، مقرّباً جداً من زوجته ميريانا وكانت أستاذةً للعقيدة الماركسية.

هذا الذي تبدو شخصيته ومهنته من دون لمعة تُذكَر، له ماضٍ قاتم ومثقَل. فوالده انتحر برصاصةٍ وهو في الواحدة والعشرين، ووالدته انتحرَت شنقاً في صالون منزلها عام 1974، وعمُّه انتحر كذلك وكان ضابطاً.

في 1987/4/24 تحوَّل هذا الشيوعيُّ الأرثوذكسيُّ زعيماً وطنياً ليسلك نهجاً يفكّك يوغوسلافيا ويُشعل جُزُرَ البلقان. ففي ذلك اليوم، وفي كوسوفو بولغا (ناحية من كوسوفو قريبةٌ من العاصمة بريستينا) حَضَرَ تجمُّعاً

للصرب (وهُم أقليةٌ في هذا الإقليم الذي 90٪ من سكانِهِ ألبانٌ مسلمون)، وأصغى الى شكاوى متلاحقة أطلقَتها الجموع المحتشدة متظلِّمةً من مضايقات الألبان. وفجأةً دهم رجال الشرطة الألبانيةُ الجموعَ وأخذوا يفرّقون الناس بالهراوات، فما كان من ميلوسيفيتش إلاّ أن أعلن خطيباً بصوتٍ شديد التأثُّر: "قريباً لن يعود يضربكم أحد". فصدرت عن الصرب المهتاجين هتافات: "سلوبو، سلوبو". في تلك الساعة بالذات، بدأ التحضير لـ"صربيا الكبرى".

تلك الحادثة "غيَّرت ميلوسيفيتش كلياً" (قال المؤرّخ الإنكليزي نويل مالكورم لاحقاً) "كما لو انَّ شرايينه حُقِنَت بمخدِّرٍ جديدٍ وقويّ". واستعاد تلفزيون بلغراد مراراً وتكراراً صرختَه تلك، ففسَّرها جميع الصرب "نداءً الى الحرب" (كما صرَّح أحد المقرّبين منه).

في كوسوفو نهار 1989/6/23، وفي ذكرى مرور 600 عام على معركة "ميرل" الأسطورية بين الصرب والعثمانيين، خطبَ ميلوسيفتش أمام جمهورٍ من مليون نسمة، وذكَّرهم بـ"الشعب الصربي المهان" الذي "عليه أن يتخلّص من عقدة الدونية"، وأن يحتلّ مكانه كـ"أكبر أمة في المنطقة"، وأن "يستعيد سيادتَهُ القومية والروحية حتى ولو بمواجهاتٍ مسلّحة إذا اقتضى الأمر".

لهجة ذلك الخطاب، بما فيها من عنف الأفكار، أهاجت الصرب وأقلقت الكرواتيين والسلوفينيين والبوسنيين والمقدونيين الذين، أمام الانضمامية الصربية، لم يكن لهم خيار سوى الاستقلال الذاتي بعدما أخذ

ميلوسيفيتش ومناصروه يسيطرون عملياً على "الاتحاد اليوغوسلافي"، مما جعل خصومه فترتئذٍ يسمّون يوغوسلافيا "صربوسلافيا".

هكذا كان الصدام يقترب. وفي شباط/فبراير 1989، دخل الجيش الاتحاديُّ الى كوسوفو على وقع تصريح ميلوسيفيتش: "لن تستطيع قوةٌ في الأرض أن توقف شعب صربيا بعد اليوم". وبعد عامٍ من ذلك التصريح زال استقلال إقليمَي كوسوفو وفُوْيْفودين حيث تعيش أقليةٌ هنغاريةٌ لافتة.

وبدا يومها أن الحرب وشيكة بهجوم متقَن التخطيط: تمّ تحييد سلوفينيا (أكثر من 90٪ سلوفينيون) وصرَّح ميلوسيفيتش: "لا نريد حرباً مع سلوفينيا. فهي جمهوريةٌ صافيةٌ إتنياً، وبدون صرب. لذا لا يهمّنا إذا انفصلت عن يوغوسلافيا. وبعد تخلّصنا من سلوفينيا يمكننا أن نهتمّ بكرواتيا". وهذه، لم يكن فيها سوى 12٪ من الصرب (نحو 600 ألف نسمة). وفي تشرين الثاني/نوفمبر 1991 تمّ اجتياح فوكوفار (إحدى أكبر مدن البلاد بعد زغرب) وكانت الحصيلة 15 ألف قتيل. لكن الكرواتيين، في نهاية السنة الرابعة من الحرب، استعادوا السيطرة على معظم أراضيهم بعد هرب نحو 300 ألف صربيّ منها أو طردهم.

الهدف التالي كان البوسنة، أكثر الجمهوريات (في يوغوسلافيا السابقة) تعدديةً إتنية: 43,7٪ مسلمون، 31,4٪ صرب، 17,3٪ كرواتيون. وكان السكان يتعايشون حتى ذلك الحين بكلِّ فطنة.

في 1992/4/6، تجمّع صرب البوسنة على التلال المحيطة بسراييفو وحاصروها، ثم راحوا يقصفونها، فيما القنّاصون يصوّبون على المدنيين بكلِّ برودة. إنها حرب الحقد.

هنا برز أوّل خطأين ارتكبهما الغرب:

1- مقابل استفزازات الصرب وابتزازاتهم، كانت قوّات الأمم المتحدة مجرّدةً من كلِّ سلطةٍ، وممنوعةً من أي ردّ، مما جعل "القبعات الزرق" في حالة إذلال دائمة. هكذا ساهمت سلبية الحكّام الغربيين وتردّدهم وتواطؤهم أحياناً، في نشوء موقف ميلوسيفيتش من كوسوفو بعد سنوات.

2- طوال المشكلة البوسنية، كان سيِّد بلغراد معتَبَراً في الأروقة السياسية حِرَفِيَّ كلِّ حلٍّ تفاوضيّ، في حين أنه واقعاً كان هو محور المشكلة.

وفيما اعتُبِرَ رادوفان كارادیتش والجنرال ملادیتش "مجرمَي حرب"، بقي ميلوسيفيتش (وكان يمدّهم بالمساعدات اللوجستية والدعم الوثيق) مُحَيَّداً خارجَ كلِّ شكّ، هو الذي ظلَّ يضلِّل الصرب ويكذب على زوّاره الأجانب، حتى سيطر الصرب على سْرِيبْرِينِكا (منطقة تحت حماية الأمم المتحدة) حيث اعتُبر 8000 نسمة من سكّانها في عداد المفقودين.

وسط كلِّ ذلك، كان الإعلام الرسمي في بلغراد لا ينفك يردِّد أنّ صربيا "مهدَّدةٌ من الخارج"، وأنها "ضحية تهديدات كرواتيا والبوسنة"

الفصل الثاني

- هل تدخّن السيجار؟

وفتح سلوبودان ميلوسيفيتش علبةً ضئيلة من السيجار الصغير كانت على طاولة واطئةٍ الى جانبه، وانحنى صوبي حاملاً باليد الأخرى ولاّعة مشتعلة. كنا جالِسَيْن وجهاً لوجه في مقعدَين جلديَّين وثيرَين داخل مكتبه في الطابق الأوَّل من بناية رماديّـةٍ تشرف على حديقة عامة. كان المكان مقفراً تماماً إلاّ من سكرتيرته التي التقيتُها في الممر.

كنتُ عشية ذاك اليوم وصلتُ الى بلغراد آتياً من بودابست: الوضع في البوسنة على أشدّ حالاته المأساوية، والكمّاشة تشدُّ خناقها على سرايـيفو الواقعة تحت وابل القصف المتواصل.

كان ميلوسيفيتش هادئاً، مسترخياً، وطوال أربع ساعاتٍ جلستي معه لم تبدُ منه أيّـة إشارة توتّرٍ أو انزعاج. ثعلب ساخر يسعى الى تمويه الحقيقة وخداعها، ويجعلني أحس أنني في بلد "الكذبة المشوّشة".

بدا ماركسياً متمرِّساً يُدير "جدلاً سِنَوْرياً" كان آرثر كستلر وصفه لي في لندن بـ"الناجع دوماً للتملّص". لكنَّ كذب ميلوسيفيتش مثيرٌ ومكشوف في معظمه، وكذا تأكيداته، وخاصةً حول مستقبل كوسوفو.

بدأتُ حواري معه بإثارة لهجة الحزم المتصاعدة من المجموعة الأوروبية والولايات المتحدة، تصميماً على التصلّب في الموقف ضد صربيا. فهزَّ برأسه تأثُّراً، وقال:

- آمل ألاّ يكون هذا التصلّب سوى موقف موقّت في أقصى مواقعه، كرقّاص الساعة. الجميع يُخضعوننا لعقوباتٍ تبرِّرها ادعاءات هجوم

الصرب على البوسنة والهرسك التي ليس فيها جنديٌّ صربيٌّ واحد. وأتمنى لو يُظهر لي أحدٌ وثيقة واحدة تثبتُ ضلوعنا في الحرب الأهلية الدائرة في البوسنة. سيكون سهلاً على دولةٍ كالولايات المتحدة إظهار هذه الوثيقة لو كانت فعلاً تملكها.

– أتعني إذاً أنَّ فرض العقوبات عليكم غيرُ عادل؟

– هذا الأسلوب في الضغط بالعقوبات، بدأته المجموعة الأوروبية لأننا لم نوافق على وثيقةٍ اقترحها الوسيط اللورد كارلتون، تنذرُ بتذويب الدولة اليوغوسلافية. وانهالت علينا العقوبات الدولية لمجرَّد رفْضِنا أن نرى دولتنا تذوب.

– ما هو برأيك أساس المشكلة في جمهورية البوسنة والهرسك؟

– كلُّه يتأتى من سياسةٍ مغامِرَة يتَّبعُها القادة البوسنيون. فالسيِّد إيتسيبيغوفيتش والقادة البوسنيون المسلمون ظنّوا أنَّ تفكيكَ يوغوسلافيا سيتيح لهم إنشاءَ دولةٍ إسلامية مستقلّة في البوسنة، وفرضَ مصالح شعبٍ واحدٍ (من ثلاثة شعوبٍ تشكِّل البوسنة) بسحق مصالح الشعبين الآخرين. لذلك أطلقتُ تأكيدي جازماً: الصرب والمسلمون إخوةٌ في البوسنة، وأيُّ خلافٍ بينهم لا يخدم سوى مصالح أعدائهم. وليس من منتصرين في مشكلةٍ من هذا النوع، بل خاسرون هم الأبرياءُ المدنيون الذين يسقطون ضحايا المواجهات. وهنا أؤكد أن للمجموعة الأوروبية مكيالَين ومعيارَين، إذ اعترفت بالبوسنة والهرسك مع أنها دولةٌ ليس لها برلمان ولا حكومة ولا حتى رئاسة، وهي لا تسيطر حتى على أراضيها وليس لديها أيُّ دستور.

كانت الحالة فيها هادئةً، مستقرة، وبدون أي صدام مسلّح، فجاء هذا الاعتراف المتسرّع يحدث فيها هزّة قاتلة.

- أيعني كلامُك أنّ الجيش الاتحاديّ ليس ضالعاً في البوسنة؟

- ليس في البوسنة جنديّ اتحاديّ يوغوسلافي واحد. ولم تتدخّل صربيا مطلقاً بهذه المشكلة التي تحوّلت حرباً أهلية. الهجوم على هذه الجمهورية قامت به القوات الكرواتية، والمراقبون الأوروبيون يعرفون بالضبط أن على أرض البوسنة 42 ألف عنصر من الجيش الكرواتي النظامي.

- أيُّ تأثيرٍ لكم على الميليشيات الصربية التي تقاتل في البوسنة؟

- تشكّل في البوسنة جيشٌ من الجالية الصربية، نشأ على نموذج جيش الجالية الإسلامية والجالية الكرواتية. وهذه الجيوش الثلاثة تفرعت من جذعٍ مشترك في الجيش الاتحادي الذي كان متواجداً على هذه الأرض. وكانت الرئاسةُ في يوغوسلافيا تلحُّ على جميع الفرقاء لبلوغ تسوية حول وضع الجيش في البوسنة. وكادت تثمر مفاوضاتُ اجتماع في سكوبيا لبحْث إزالة الحالة العسكرية، لولا دخول إيتسيبيغوفيتش الى سرايسفو وإصدار أوامره بهجومٍ شامل على جميع ثكنات الجيش الاتحادي وعلى بعض الأراضي الصربية. وهو لاحقاً أنكر إصداره هذه الأوامر لدى صدورها في الصحافة.

- ولكنَّ لك تأثيراً قوياً على القوات الصربية في البوسنة.

- ليس لنا أيُّ تأثير على التنظيم العسكري أو على القيادة العسكرية. كلُّ ما لنا: اتصالات بممثلي الجالية الصربية في البوسنة، ونحاول أن يكون لنا أقصى التأثير لبلوغ وقفٍ فوريٍّ لإطلاق النار. ووافق القادة

الصرب في البوسنة على مبادرتنا معلنين مراراً وقفاً لإطلاق النار من جانبٍ واحد لم يحترمه الجانب الآخر ولا مرة.

- هل تدين القصف على سرايـيفو؟

- جداً. ونحن أعلنّا ذلك غير مرّة لأننا نؤمن بعدم جدواهُ وبضرورة إطفاء أجيج النار هناك لإنجاح مفاوضات السلام. وأصررنا على تحييد مدينة سراييفو ومطارها عسكرياً. وهذا يتفق مع موقف المسؤولين الصرب في البوسنة لكنه لم يتفق مع المسؤولين الآخرين. ولولا زيارة الرئيس ميتران لما كان المطار أُفرِغ من القوات العسكرية. فـ"القبعات الخُضر" في الميليشيات الإسلامية كانت دائماً ترفض وقف قصف المطار.

- إذا كانت النية الصربية طيبةً الى هذا الحدّ، فكيف تفسّر إعلان الرئيس الفرنسي بحزمٍ أنَّ "صربيا هي اليوم المتعدية؟".

- أظنُّ الرئيس الفرنسي، كمسؤولين كثيرين سواه، تلقّى معلوماتٍ خاطئةً حول المسؤولية الحقيقية للمشكلة في البوسنة. فثمّة قانونٌ، على ما يبدو، غير منطقيٍّ، يدين الأقوى دائماً، كالقوات الصربية في البوسنة. أعرف أنّ هذه الحرب الأهلية أوقعت كثيراً من الضحايا. ولكنك، إذا شاهدتَ باستمرارٍ أعمال الفظاعة والوحشية المتهمَة بها القوات الصربية، تنتهي الى اقتناعك بأن هذا الشعب فعلاً متوحش وقاتل. والواقع أنَّ لدينا عدداً هائلاً من المشاهد عن قرى صربية مدمرة، وأطفال صرب محروقين، ونساء صربيات مغتصَبات، واعتداءات وحشية ضد الصرب، تظهر على شاشاتنا ولكنّها لا تظهر على شاشاتكم الغربية. فلماذا هذا الانحياز؟

- ربما لأن مشاهد بهذه الفظاظة دارت العالم وصفعت الرأي العام، ومنها العنف الوحشيّ في حصار مدينة فوكوفار.

(هنا بدا ميلوسيفيتش للحظاتٍ مرتبكاً قليلاً، ثم تنفّس عميقاً قبل أن يجيب)

- صحيح. كانت مشاهد حصار فوكوفار كارثية علينا.

- أما تزال شيوعياً؟

- لم يعد في يوغوسلافيا أيُّ معنى للتصنيف بين شيوعيّ وغير شيوعي. أنا مؤسس الحزب الاشتراكي في صربيا، وهو يضم اليوم نحو نصف مليون حزبيّ، نصفهم مواطنون لم ينتموا أبداً الى الحزب الشيوعي ولا الى أي حزب آخر.

- مع أنك متهم حالياً بتركيزك على خطابٍ قوميٍّ واضح كما لتخفي ماضيك الشيوعي.

- إقرأ خطاباتي، وإذا وجدت فيها أفكاراً قومية فانعتْني بالقومي.

- ألا تعتبر نفسك قائداً قومياً صربياً؟

- أنا مواطنٌ صربيّ. لست قومياً صربياً ولا أرى أيَّ سببٍ لأكره أيَّ شعبٍ آخَر من أية قومية أخرى، كما لا أرى أي مبرر للقومية مع نهاية هذا القرن العشرين.

- أتدافع عن فكرة دولة صربية "إتنية بحتة"؟

- أبداً، على العكس: أجد أن فكرة الدولة القومية الإتنية البحتة ضلالٌ كاملٌ في عصرنا، وهذا أكثر المفاهيم السياسية رجعية.

- ما هو أهمُّ قرار سياسيٍّ تعتبر أنّك اتخذته؟

– توحيد صربيا. فلو لم تتوحد صربيا عام 1990 لكان الشعب الصربي بات اليوم بلا وطن. وبالفعل: بين جميع الجمهوريات اليوغوسلافية كانت صربيا، بسبب الخطإ في الدستور عام 1974، هي الوحيدة التي جزِّئت الى ثلاثة أقسام. وكان إقليما فُوْيفُودين وكوسوفو نالا امتيازاتٍ معادلةً لامتيازات الدولة المستقلة، فلم نلغِ استقلال فويفودين ولا كوسوفو وإنما ألغينا امتيازاتهما كدولة. والتوتر الحاصل في كوسوفو ليس نتيجة صِدامٍ مع المسلمين بل مع انفصاليين ألبان يريدون رسمياً إعلان كوسوفو إقليماً إتنياً بحتاً، وكوسوفو هو قلب صربيا ويعيش فيه أكثر من مئتَي ألف صربي كانوا سكّان الإقليم قبل أن يطأه الألبان الأوائل.

– تعتبرون حدود صربيا الحالية لا تمس. هل يمكن إعادة النظر فيها؟

– ومن يمكن أن يطالب بذلك إلاّ الانفصاليون الألبان؟

– أليس في مواقفكم تناقض في فرض الحكم الذاتي للصرب وفي رفضه للألبان الذين يمثلون 90٪ من سكان كوسوفو؟

– الصرب والكرواتيون شعبان لم تكن لهما دولةٌ قومية سوى يوغوسلافيا التي لم تعامل يوماً الصرب والكرواتيين والمونتينغريين والسلوفينيين والمقدونيين كأقلياتٍ قومية. ومع أن الألبان أقلية قومية في صربيا، فهم يتمتعون بجميع الحقوق المعطاة للأقليات إلاّ حقّهم في مغادرة البلاد والانتماء الى الدولة المجاورة.

– يعني أنّك لن تقبل؟

– بالتخلّي عن إقليم كوسوفو؟ أبداً. ولا أظن مسؤولاً في مكاني يمكن أن يقبل بذلك، ولا الشعب الصربي يرضى بهذا التخلّي. خذ مثلاً في

الولايات المتحدة: تقوم تجمّعات صينيةٌ في المدن الكبرى تكوّن 90٪ من سكان تلك المدن. فما يكون موقف السلطات الأميركية لو حاول هؤلاء الصينيون أن يطالبوا بالاستقلال من جهة واحدة؟

– أأنت قلِقٌ من تصاعد موجة الظاهرة الإسلامية؟

– كلُّ مسؤولٍ قلقٌ أمام هذه الظاهرة. ومن الخطر القاتل أن ينقسم العالم الى جزئياتٍ دينية، هو الذي لا ينفك يتوحّد بفضل التطور التكنولوجي ووسائل الاتصالات.

– يعتبر مسؤولون كثيرون في الخارج أن الموقف في يوغوسلافيا السابقة لا يمكن حلّه إلاّ باستبدالك في بلغراد؟

– هؤلاء ينسون أن الأزمة اليوغوسلافية لم تبدأ في بلغراد بل مع انفصاليين إحاديين في سلوفينيا وكرواتيا وجمهورياتٍ أخرى. أما المواطنون هنا فيعيشون بأمانٍ طبيعيّ. والعقوبات مفروضة علينا لأن في جوارنا حرباً أهليةً جرَّت علينا تهمةَ أننا نحن قمنا بالغزو والاحتلال.

– أليس من أهدافكم إنشاء "صربيا كبرى"؟

– أبداً. قلتُ ذلك وكتبته: لم يكن يوماً لصربيا طموحاتٌ في أراضي الآخرين ولا كانت لها الرغبة يوماً في توسيع حدودها. إنها كعضوٍ في المنظومة الدولية تحترم مبادئ هذه المنظومة بمقدار ما الدول الأخرى تحترم مبادئنا. أنا ضد نظام المكيالين والمعيارين.

– ماذا تعني بذلك؟

– أعني ألاّ يحاول أحدٌ فرضَ معاييرَ علينا لا تطبقها أوروبا نفسها.

– وبدقة أكثر؟

– أعني أنَّ الأوروبيين يحاولون فرض حلولٍ على يوغوسلافيا لا يمكن أن تقبل بها الدول الغربية. خذ فرنسا مثلاً: لو حاولت منطقةٌ فيها أن تعلن استقلالها عنها إحادياً، وأن تحاصر سكاناً فرنسيين يرفضون الانفصال فتحتجزهم رهائن، وأن يتمَّ لك بصداماتٍ عسكرية، فكيف تتصور تصرُّف باريس لو قامت دولة مجاورة تدعم هذا الانفصال وتغذّيه؟

– وقوفك في وجه الضغط الدولي كم تظنّه يطول؟

– لو أخذت القوى الأجنبية في إعادة تشكيل صربيا وفق مصالحها، لن يكون ذلك مفيداً لصربيا ولا موقفاً نبيلاً من تلك القوى.

انتهى الحوار، لكنه واصل الحديث باسترخاءٍ تخلله بعض المزاح. فهذا الرجل الذي يغيّر التاريخ والجغرافيا في حتمية مزدوجة بتفكيك البلقان مجدداً، بدا لي مضلّلاً وغامضاً في الوقت نفسه، كلاعبٍ يفلش أضاليله ليحسن خلطها في ما بعد. كنتُ أمامه أشعر باللاواقعية. كان المكتب صامتاً لا يتناهى إليه أي صوت من الخارج، ولا حتى رنّ جرس الهاتف خلال الحديث. ولاحظتُ أنْ لم يكن في القاعة ساعةٌ جدارية، فكأن ميلوسيفيتش يعيش خارج الزمن.

تذكّرتُ ما كان همسه لي الرئيس التشيكي فاكلاف هافيل: "حين وصلتُ الى القصر (يقصد القصر الرئاسي على تلال براغ حيث تعاقب القادة الشيوعيون منذ 1948) لفتني أمرٌ واحد: في جميع الغرف التي دخلتها كانت الساعات الجدارية جميعها متوقفة. ذلك أن التوتاليتارية تعمل خارج الزمن أو تعمل على محوه". وسلوبودان ميلوسيفيتش مثالٌ حيٌّ لهذا "العمل". فبعد 10 سنوات على حكمه، بلغ حصيلةً كارثية: عام 1989 كانت

يوغوسلافيا على وشك أن تنضم الى المجموعة الأوروبية. وها هي عام 1999 تصبح دولة فقيرة ونامية. وفيما كانت عام 1989 تضمُّ 23 مليون نسمة، لم يعد فيها بعد عشر سنواتٍ سوى نصفّ هذا العدد. ومن الجمهوريات الاتحادية الست التي تكوّنها، أصبحت أربعٌ منها دولاً مستقلة، وعلى رأس الخامسة بينها (مونتينغرو) رئيسٌ معادٍ لميلوسيفيتش. بعد ثماني سنوات من الحرب كانت الحصيلة 200 ألف قتيل وثلاثة ملايين لاجئ. رغم هذا، وكما في الحلم، يصرُّ على أنه لا يحلم بـ"صربيا الكبرى"، مع أن أفعاله تدلُّ بوضوحٍ على ذلك.

حين وصل ميلوسيفيتش عام 1995 الى القاعدة العسكرية في دايتون (أوهايو) منضماً الى المجتمعين فيها لبلورة حلٍّ ينهي المشكلة البوسنية، كان ينتظره ملفٌ كثيف، أعدته عنه أجهزة المخابرات المركزية الأميركية، أظهرته "متوتّراً غالباً، عصبيّاً، مدمناً على الويسكي والنبيذ". وبالفعل ذُهل المفاوضون الأميركيون لاكتشافهم في شخصيته تصرفاتٍ غيرَ متوقعة. ففي اليوم الأول تأخّر 40 دقيقة عن موعده مع وزير الخارجية الأميركي وورن كريستوفر والرئيس الكرواتي فرانكو تودجمان. وحين وصل "كانت ربطة عنقه مفكوكة وعوجاء، وهو ذاهلٌ لخروجه ثَمِلاً من غداءٍ كان مدعواً إليه"، كما قال أحد الشهود. ولاحقاً أسرَّ أحد المفاوضين الأميركيين ممن كانوا في دايتون: "كنا حسبناهُ سيدافع بشراسةٍ عن مصالح الأقليات الصربية في البوسنة وكرواتيا. لكنهُ أبدى حياداً بارداً تجاهها". ويروي السفير الأميركي السابق في كرواتيا بيتر غالبرَيث أنّه قدَّم إليه مشروع اتفاق حول

حقوق الصرب الباقين في كرواتيا: "أذهلني أنه لم يبدِ أيَّ اهتمامٍ بمصير الصرب في كرواتيا".

وفي وقتٍ لاحق أجاب ميلوسيفيتش محاوريه الأميركيين حول الصرب في البوسنة بقوله: "تريدون رأيي بهم؟ إنهم مقرفون". وأتبع كلامه بتمتمة اشمئزاز.

من خصائص ميلوسيفيتش أنه مخطط سيئ ومراوغٌ حاذق، استنفد جميع الفرص المتاحة أمامه. فعام 1995، حين كانت طائرات حلف شمال الأطلسي وقوات التدخل السريع تقصف مواقع صرب البوسنة طوال شهرَي آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر، كان هو في بلغراد مجتمعاً بالموفد الأميركي ريتشارد هولبروك لوضع اللمسات الأخيرة على اتفاقية دايتون. وكان القصف حجة استخدمها للعدول عن أهدافه والتخلّي عن صرب البوسنة من دون المساومة على سلطته.

وقد يكون، في السياق نفسه، اعتقد أن الولايات المتحدة وحلفاءها الأوروبيين لن يتدخّلوا إذا هو تدخّل في كوسوفو. مع أن إدارة بوش كانت تتابع بقلقٍ انفجار يوغوسلافيا عام 1991، وكان واضحاً للرئيس الأميركي وفريق عمله خطرُ حربٍ جديدة في البلقان قد تنشبُ من جرّاء الصدامات في كوسوفو. ولم تكُن أحداث كرواتيا والبوسنة في نظرهم إلاّ "ثانوية" ومواجهاتٍ لا مصلحة لهم في التدخّل بها.

ومع توالي الأشهر كان يزداد قلق الرئيس الأميركي، الى أن قرَّر إرسال تحذيرٍ واضح للرئيس الصربي في 1992/12/29. وكانت مساعِدة وزير الخارجية لورنس إيغلبرغر واضحةً وحازمةً في الإشارات التي أبلغتها

الى السفير الأميركي في بلغراد: أن يوصل في لقاءٍ ثنائي خاص مع ميلوسيفيتش هذا التحذير حرفياً: "إذا الانتهاكاتُ الصربية جعلت الوضع في كوسوفو يتدهور أكثر، فالولايات المتحدة جاهزة للتدخل عسكرياً ضدّ الصرب في كوسوفو وفي صربيا نفسها". وفي واشنطن قال بوش لمستشاريه: "رسمتُ له خطاً حذّرتهُ من تخطّيه". لكن بوش، بعد أيامٍ من هذا التحذير، كان يغادر البيت الأبيض ويسلّم السلطة الى خلفه بيل كلينتون.

هذا التهديد السافر من أكبر قوة عسكرية في العالم، واجهه ميلوسيفيتش كعادته: أعلن للسفير الأميركي وورن زيمرمان قناعته بأن "الولايات المتحدة وضعت مخططاً لمراقبة البلقان بالاتفاق مع ألمانيا عدوة صربيا التقليدية". وأكّد قناعته بـ"مخطط واشنطن لتحويل ألبانيا مستعمرة أميركية، كي تكمل عبر كوسوفو الى صربيا فتخنقَها".

في نيسان/أبريل 1992 أرسل السفير الأميركي تقريراً عن لقائه الأخير مع القائد الصربي بُعَيدَ استدعاء حكومته إياه لتكليفه إبلاغ احتجاج صارم من حكومة بلاده ضدَّ فظاظة القوات الصربية في البوسنة. وجاء في التقرير أن ميلوسيفيتش دعا الى عشاءٍ طال أربع ساعات، شَحَنَه بجوٍّ ضاغط، وأعلن خلاله رفضه الحازم كلَّ الاتهامات الموجهّة ضدّه. ثمّ استرسل، وسط صمت مدعويه وذهولهم، في عرضٍ طويل وعاطفي حول إمكاناتٍ مغريةٍ للاستثمار والتجارة، متوفّرةٍ في صربيا أمام المستثمرين الأجانب.

الفصل الثالث

كتبَ فؤاد عجمي في مجلة *"نيوزويك"* : "لم تتغيَّر الحقيقة القاسية في كوسوفو: ممرٌّ مسدودٌ قاتلٌ بين الجغرافيا والتاريخ". فالديموغرافيا، من جهة، في صالح الألبان (يشكلون 90٪ من سكان كوسوفو الذين يعدّون 1,8 مليون نسمة)، والصرب، من جهة أخرى، مأخوذون بالروحانيات ويعتبرون الإقليم "مهد بلادهم المقدَّس".

عام 1990، أرسلت بلغراد الجيش الاتحادي الى الإقليم وحاصرته. وفي حزيران/يونيو من ذلك العام، أصدرَت قوانين تلغي جميع التنظيمات السياسية المُطالِبة باستقلال الإقليم. وكان هدف ميلوسيفيتش واضحاً: "صَرْبَنَة" كوسوفو. فلم تعد المدارس تدرِّس إلاّ اللغة الصربية، وطُرِدَ عشراتُ الآلاف من وظائفهم.

الحرب في كوسوفو بدأت عملياً في 1998/2/28، حين ردَّت القوات الصربية على اغتيال كومندُسٍ ألبانيٍّ رجلَين من الشرطة، فاستمرت الصدامات إثْرَها في منطقة دْرينيكا (وسط البلاد) عدّةَ أيامٍ كانت حصيلتُها نحو 70 قتيلاً و6500 مشرَّد. ولم يكن إقليم كوسوفو لدى دوائر الخارجية في واشنطن يشكِّلُ قضيةً خاصة، بل كان ملفّاً ثانوياً يتابعه ويعالجه مكتبٌ في دائرة الشؤون الأوروبية.

في 1998/3/9 كان ستة وزراء خارجية (فرنسا، ألمانيا، بريطانيا، روسيا، إيطاليا، الولايات المتحدة) يجتمعون في وزارة الخارجية البريطانية (لندن). وفاجأت الجميعَ وزيرةُ الخارجية مادلين أولبرايت بصرامة آرائها حين أعلنت: "فلنتذكَّرْ أنَّ الضغوط الوحيدة التي يفهمها الرئيس

ميلوسيفيتش هي تلك التي تجعل سلوكه المرفوضَ يكلِّفُهُ غالياً. لا نريد تكرار ما حصل عام 1991 حين لم تتحرك المنظومة الدولية ضده بالحزم الكافي لتُعاقِب اغتصابه معايير حقوق الإنسان. ها ميلوسيفيتش يلعبُ بالنار مرة أخرى، والتاريخ يتطلّع إلينا، وأمامنا فرصة لتصحيح أخطاء اقترفناها".

وكانت مادلين أولبرايت (التشيكية الأصل) متأثّرةً بصورٍ للمجازر في درينيكا ظهرَت فيها أجسام الضحايا محروقة ومشوّهة. وفي موضع آخر قالت لمقرّبين منها: "أمام لوحة أسماء 279 77 قتيلاً على جدران سيناغوغ بينكاس في براغ، أقسمتُ ألاّ أسمحَ بحصول هولوكوست آخر".

بُعَيْدَ ذلك أُرسِلَ موفد أميركي (روبرت غيلبارد) الى البلقان على عجلٍ ليقابل ميلوسيفيتش في بلغراد. ومع أنَّ غيلبارد دبلوماسيٌّ محنّك، كان لقاؤه والرئيس الصربيّ كارثيّاً، إذ عَلَت بسرعةٍ نبرةُ الرجلين، فما كان من الأميركي إلاّ أن أثارَ ظروف المجازر الأخيرة صارخاً بوجه الرئيس الصربي المذهول: "عملتَ أكثر وأفضل من أيٍّ كان لتغذية جيش تحرير كوسوفو الذي يحارب من أجل استقلال أراضيه، وتصرّفتَ كأنّك أنتَ الرئيس السريّ لهذه المنظمة". فثار ميلوسيفيتش وقذف الأميركي بجوابٍ حاد: "لن أرضى أن أقابلك بعد اليوم".

ظلّت مادلين أولبرايت مقتنعة بجسامة الخطر وضرورة التحرّك السريع. وحين التقت نظيرها الإيطالي خلال توقّفٍ لها في روما، بادرته: "لا يمكننا أن نبقى سلبيين. يجب أن نُظهر للسلطات الصربية استحالةَ تصرّفها في كوسوفو كما تصرّفَت في البوسنة". وهي، بحسب أقرب مساعديها، كانت تخطط لإقناع ثلاثة فرقاء: الحلفاء الأوروبيين، الرأي العام الأميركي والبيت

الأبيض. على أن مهمتها الأصعب كانت في واشنطن، كما صرَّح أحد مستشاري الرئيس الأميركي: "خلال الأشهر الأولى من 1998 لم أحضر أي اجتماعٍ في البيت الأبيض حول كوسوفو. كنا منهمكين بزيارات الرئيس كلينتون الى الصين وأفريقيا، وبتدارك خطر الانهيار السياسي والاقتصادي في روسيا، علماً بأن جميع جلسات العملْ مع الرئيس كلينتون في تلك الحقبة كانت تحت هاجسٍ واحد: *العزل*".

في البيت الأبيض كان رجلٌ يحاول كبحَ إرادة الانفجار العسكري لدى وزيرة الخارجية. إنه ساندي برغر (رئيس مجلس الأمن القومي). مكتبه على بضعة أمتارٍ من مكتب الرئيس، ويلتقيه في التاسعة والربع صباح كلّ يوم ليبحث معه أهمّ ملفات السياسة الخارجية. وهو محامٍ سابقٌ تعرّف الى كلينتون في مدينة آلمو عام 1972 حين عمِلا معاً ضمن فريق جورج ماك غافرن (مرشّح ديمقراطي للرئاسة انهزم بقسوة أمام نيكسون). وحين استدعى كلينتون صديقه برغر وعيَّنه على رأس مجلس الأمن القومي، كان من أولى مبادراته أن جمع مادلين أولبرايت ووليم كوهين (وزير الدفاع) لوضع أربع "قواعد لعدم الاصطدام"، هي:

1- لا انتقادات أمام الآخرين.

2- ترْك المتراجع الى الوراء عوضَ مبادرته بـ"إنك لا تعرف ماذا تقول"، حتى يأتي المتراجع ويعترف: "إنني أخطأت".

3- افتراض العفوية. قبل أن تتأكد من تصرف زميلك بشكل مشبوه، خذ الهاتف وتحدث إليه طويلاً.

4- لا سياسة في المؤتمرات الصحافية، بل الاتفاق على المواضيع مُسْبَقاً قبل عرضها كقرارٍ سياسي.

وعن برغر أنه يتحدث بالهاتف يومياً مع أولبرايت نحو ثلاثين مرة. وهو الذي دعم لدى كلينتون ترشيحها لوزارة الخارجية. مع ذلك حاول برغر التخفيف من اندفاع أولبرايت الانتقامي في ملف كوسوفو. وهو أعلن: "لا نبعدنَّ كثيراً في طريق التهديدات. أظن قضية كوسوفو ستجرّنا الى التعهد بما لن يتمكّن الرئيس من تنفيذه". وكان بذلك يتجنّب المساومة على صدقية الولايات المتحدة، مستنداً إلى دعم البنتاغون الذي لن ينساق الى عمليةٍ عسكرية في البلقان.

في 1998/3/31، أصدر مجلس الأمن في الأمم المتحدة قراره رقم 1160 بفرض عقوباتٍ اقتصادية على بلغراد. وأعلن الرئيس كلينتون تجميد الودائع اليوغوسلافية في الولايات المتحدة. وظلَّ القراران بدون تأثيرٍ عمليٍّ مباشر على ميلوسيفيتش.

وعبثاً تتالى الموفدون الأوروبيون الى بلغراد (بينهم وزيرا الخارجية الفرنسي هوبير فيدرين والألماني كلاوس كِنكل)، إذ بدا ميلوسيفيتش محصناً بحوار، أو بمفاوضة، مع الولايات المتحدة، وكانت واشنطن بالفعل تتعامل مع ملف كوسوفو بشكلٍ ملتبس. وهذا ما دعا دبلوماسياً أميركياً الى القول: "كانت أولبرايت تَقلَق وتهدِّد، فيما سفيرنا الى مقدونيا كريستوفر هيل يلعب بإيقاع سريع ورقة رئيس جمهورية كوسوفو (المعلنة ذاتياً) ابرهيم روغوفا، أحد تلامذة غاندي والداعي مثله الى الاستقلال عن طريق اللاعنف".

كان روغوفا، المثقّف المعتدل، محاوراً ممتازاً بالنسبة لأوروبا والولايات المتحدة. وقراره في تشكيل حكومةٍ مستقلّة ولو صُوَرية، ساعد في توسيع الشرخ بين الألبان. وهو لم يكن يملك وسائل التصدي لميلوسيفيتش. وعن ديبلوماسي أجنبي: "ظلّ روغوفا المحاور الوحيد مدةً طويلة لأنه لم يقل مرّة: لا، بل كان يجلس وينصت".

قليلون من المراقبين الأجانب تنبّهوا الى أن العجز السياسي لدى روغوفا ساهم في تصلُّب المواقف لدى شريحةٍ من السكان الألبان، وشجّع انطلاق جيش تحرير كوسوفو. من هنا أن جريدة *"كوها ديتور"* (تصدر في بريستينا وتنشر مضمونها جريدة *"كورييه إنترناسيونال"*) نشرت حكماً قاسياً على روغوفا بأنه: "خلق سياسةَ تضليل، وطوال عشر سنوات عجز عن اقتراح حلٍّ سياسي آخر، مما أدى الى سياسة حربٍ ناجمةٍ عن مطالبته بالاستقلال، هو الذي فشِل في خلق مؤسسة حكومية واحدة تحقق هذا الاستقلال. هكذا فهم المجتمع الدولي تعلُّق الألبان بروغوفا وانضواءهم تحت سلطته، فراح قادة هذا المجتمع ينسِّقون مع روغوفا مطيعٍ، ساذجٍ، وجاهلٍ كلَّ شيءٍ عن العلاقات بين الألبان والعالم، وخاصة العلاقات الصربية الألبانية خلال السنوات الأخيرة. وهو أضاع بوصلة الواقع، وتقزَّم بتجواله اليومي بين بيته ومقرّ اتحاد الكتّاب الكوسوفيين. وببقائه على الاتصال مع الديبلوماسيين الأجانب، ظل شاعراً بأنه فعلاً رئيس الجمهورية. وهكذا أسهم روغوفا والمجتمع الدولي بخلق وهمٍ اسمه استقلال كوسوفو".

حول هذا الموضوع بالذات، قال موظّف كبير في البيت الأبيض: "كنا مع لاعبٍ يمسك عدة ورقاتٍ ولا يعرف أياً منها يجب أن يستعمل،

ولا نحن كنا نعرف إذا كانت تلك الأوراق فعلاً صالحة للاستعمال. كنا نمسك روغوفا بيدٍ، وجيش تحرير كوسوفو باليد الأخرى، وكانت مادلين أولبرايت تطالب في إلحاحٍ متزايد بضرورة اتخاذ الخيار العسكري، بينما ساندي برغر يعارضها بإلحاحٍ متزايد آخر. بين هذه التجاذبات، كنا نقترب من الطريق المسدود".

خلال أحد الاجتماعات (أوائل أيار/مايو) في مكاتب مجلس الأمن القومي، أثار روبرت غيلبارد للمرة الأولى إمكان الضربة العسكرية. رفع برغر رأسه رافضاً: "من العبث الإيهام بتهديدٍ كهذا قبل أن نعرف نوع التحرّك الذي سنقوم به". عندها كشف غيلبارد عن لقاءاته مع القائد الأعلى لقوات حلف شمال الأطلسي الجنرال ويسلي كلارك، وأضاف: "أنجزنا اختيار الأهداف التي سنقصفها". وظلّ برغر على رفضه الحازمِ الفكرةَ والمبادرة. وعن أحد المشاركين في هذا الاجتماع: "فجأةً هبطت حرارة الصالة عدة درجات، ولم يساندْ أحدٌ موقف غيلبارد، فبقينا على تمسُّكنا بخيار روغوفا".

ذاك الخيار تبنّاه كريستوفر هيل وريتشارد هولبروك (مهندس اتفاقات دايتون التي أدت الى الهدوء في البوسنة، وكان الرئيس كلينتون عيَّنه حديثاً سفير الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة، وينتظر صدور قرار الكونغرس بتعيينه). وريتشارد هولبروك، الضخم الجثة، مشهورٌ بطموحاته المتطرفة وحبّه الجارف للسلطة، وعمِل في إدارة كارتر نائب وزير خارجية ثمّ سفيراً، واتجه بعدها الى القطاع الخاص فأصبح مصرفياً ثرياً، حتى استدعته إدارة كلينتون. وهو، كما قال عنه أحد الذين اشتغلوا معه، "يعتبر

التكتّم والبقاء في الظلّ من علامات الفشل، لذلك يسعى دائماً الى دورٍ رائد تحت الأضواء يجعله يتذوّق السلطة". وخلال الأزمة البوسنية، غالباً ما أزعج الأوروبيين في تصرّفاته تجاههم بما يشبه الاحتقار. من هنا قوله ذات يوم: "يرهقني العمل مع حلفائنا: إذا لم أستشرهم دائماً، اتهموني بالتقصير، وإذا التقيتهم دائماً، أضعتُ وقتي"

من هنا أنه كان يعتدُّ بكونه المفاوض الأجنبي الأعرف بميلوسيفيتش وبأنه أقنعه في الجلوس الى طاولة المفاوضات. وبالفعل اجتمع الرجلان للمرة الأولى عام 1995، إبّان الأزمة البوسنية وصرَّح أحد الذين حضروا لقاءاتهما الطويلة والصاخبة: "تسنّى لي أن أشاهد أنانيَّتَين أنوفتَين حادَّتَين تتحاوران طوال الليل".

ولاحقاً قال هولبروك عن ميلوسيفيتش: "كان يمكنه أن يكون سياسياً ناجحاً في نظامٍ ديمقراطي لو انّه لم يولد في تلك البلاد، ولو أنه اكتسب تربية أخرى".

غير أنَّ تأثير ميلوسيفيتش على مفاوضه الأميركي لم يدم طويلاً، فبعد خمسة أيام (1995/8/19) من ذلك اللقاء الأول، قُتِل ثلاثة رسميين أميركيين في البوسنة بتدهور سيارتهم في منحدر جبل إيغمان الى وادٍ سحيق. يومها، هرع من سيارة أخرى في الموكب رجل محاولاً إنقاذهم. إنه مستشار هولبروك العسكري الجنرال ويسلي كلارك (أصبح لاحقاً القائد الأعلى لقوات الحلف الأطلسي في أوروبا).

لم ينسَ الرجلان (هولبروك وكلارك) تلك الحادثة الأليمة التي يعتبران ميلوسيفيتش مسؤولاً مباشراً عنها، لأنه رفض أن يطير المفاوضون

الأميركيون من بلغراد الى سرايـيفو، مرغِماً إيّاهم أن يأتوا بالبر عبر ذاك المنحدر الخطر. ولاحقاً (كما سجّل شاهد عيان) بذل كلارك وهولبروك جهوداً مضنيةً كثيرةً أخرى لتليين مواقف ميلوسيفيتش، خاصة خلال المفاوضات في دايتون، إذ أمضيا ليلةً كاملة يشربان الويسكي مع القائد الصربي، يفاوضانه بفتح معبَرٍ للجالية الكرواتية المسلمة من سراييفو الى غورازدي. ولما لم يلن له قلب، خاطبا منطقه بأملٍ ضعيفٍ حين لعبا ورقة روغوفا الذي كان عندئذٍ مهمّشاً أكثر فأكثر في قلب بلاده.

بعد مفاوضاتٍ طويلة ورحلاتٍ مكوكية ديبلوماسية أميركية لإقناع ميلوسيفيتش وروغوفا باللقاء معاً، حصل اللقاء الثنائي في بلغراد لكنه لم يؤدِ الى أية نتيجة إلاّ، كما قال أحد المفاوضين، "فقدان روغوفا جزءاً آخر من صدقيته، وازدياد المحاربين الاستقلاليين في صفوف جيش تحرير كوسوفو".

بعد هذا اللقاء قال ديبلوماسيٌّ بريطاني: "أصبح جيش تحرير كوسوفو شعبياً، لا لوضوح رؤيته بل ردّة فعلٍ ضدّ العنف الصربي، وأدّت به المراوحة الألبانية في مكانها إزاء صمت الغرب الى تقوية صفوفه واندفاعه صوب طريقٍ لا رجوع فيها الى الوراء".

أما روغوفا، المتّزن الحوار والنحيل البنية، فكان (لقاءَ قبوله بمقابلة ميلوسيفيتش) تلقّى وعداً من هولبروك وهيل بأن يستقبله الرئيس كلينتون في البيت الأبيض. وتمّ تحديد اللقاء في 1998/5/27. لكنَّ انهماكات الرئيس الأميركي في تلك الحقبة تضاعفَت لانشغاله بأحداثٍ دوليةٍ أخرى، حتى أن كوسوفو، كما قال أحد المعاونين في البيت الأبيض "لم تكن تَعُد ضمن أولوياته لتهيئة الاجتماع. أو بالأحرى لم تَرِد أبداً في جدول اهتماماته".

الفصل الرابع

في السابعة والنصف صباحَ الاثنين 1998/8/15 وصل رئيس مجلس الأمن القومي ساندي برغر الى مكتبه في البيت الأبيض، كعادته في مثل هذا الوقت من كلِّ صباح. وراح يقرأ مذهولاً تقاريرَ وصلته خلال الليل ووُضِعَتْ على مكتبه، جاء فيها أن الهند قامت بثلاث تجارب نووية تحت الأرض، رفعَت من حدّة المواجهة بين نيودلهي وباكستان (التي تملك هي الأخرى سلاحاً نووياً).

أذهله الأمر وأثار غضبه، فأمر مساعديه أن يجمعوا له على عجلٍ أكثرَ معلوماتٍ ممكنة حول الحدث، قبل أن يحين موعد اجتماعه الصباحي مع الرئيس كلينتون.

وكان برغر، قبل عشرة أيام، أبلغ وزير الخارجية الهندي رسالةً من الرئيس كلينتون تؤكد استعداد الولايات المتحدة لتمتين علاقاتها مع الهند. ولم يكن الملف النووي وارداً في ذلك اللقاء.

في التاسعة والربع، دخل برغر المكتب البيضَوي مرتبكاً، حتى إذا تلقّى الرئيس كلينتون النبأ، انفجر غاضباً في وجه مستشاره: "أريد أن أفهم كيف يحصل أمرٌ كهذا ولا نعرف به مسبقاً؟".

لم يكن عند برغر أيُّ تفسير. فهو (عكس سَلَفَيْه هنري كيسنجر وزبيغنيو برجنسكي) لم يكن يحب الستراتيجيات ولا المخططات الجيوسياسية. وكان بذلك (كما قال عنه مراقبٌ يعرفه جيداً) "يشبه إطفائياً يحاول حصر الحريق بدل إطفائه. لذا، ومع أنه المستشار الأول للرئيس في

السياسة الخارجية، لم يكن تفكيره محصوراً إلاّ في اتجاه واحد: حصرُ تأثير هذا الحدث على السياسة الداخلية وعلى شعبية الرئيس".

عن هنري كيسنجر قوله: "لا يمكن اتهام محامٍ متخصِّص في الشؤون التجارية بأنه ليس مخططاً ممتازاً. دور مستشار الأمن القومي أن يعكس وجهة نظر الرئيس ومرتقباته، ولا ينتظر منه الرئيس مخططاً شاملاً".

راح برغر يغوص على ملفاته بين 14 و18 ساعة في اليوم. وفيما كان ميلوسيفيتش وريغوفا يتهيآن للقائهما معاً، قام برغر بقفزةٍ سريعة الى موسكو ليحذِّر الروس من أن عقوباتٍ تنتظرهم إذا لم يخففوا من تسليح إيران بالتكنولوجيا العسكرية. بعدها غاص برغر في تحضير زيارة الرئيس كلينتون الرسمية الى أوروبا، ولم يمنعه ذلك من مضاعفة اتصالاته برئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو وبياسر عرفات لاستئناف محادثات السلام الإسرائيلية الفلسطينية. وما تبقّى له وقتٍ ضئيل، استهلكه الغوصُ على الملفات التجارية والمواجهات المتوقعة مع الكونغرس.

أثناءَ اللقاء في البيت الأبيض مع ابرهيم روغوفا (1998/5/27)، كان بيل كلينتون ونائبُه آل غور شاردَين. كان اللقاء موجزاً، قال خلاله الرئيس الألباني مرتبكاً: "بلادي ذاهبةٌ بسرعة الى الحرب إذا لم تتدخّل الولايات المتحدة فتضع حداً للتدهور في أعمال العنف". فهز كلينتون برأسه وأجاب ذاهلاً: "لن نسمح أبداً أن يحصل في كوسوفو ما حصل في البوسنة". لكنه لم يقدِّم لذلك أي اقتراح عملي.

في نهاية الاجتماع قدَّم روغوفا الى الرئيس الأميركي حجراً كريماً مستخرَجاً من منجمٍ ألباني (شبيهاً بالذي قدَّمه بعد نحو عامٍ الى البابا يوحنا

بولس الثاني)، فأخذ كلينتون الحجر في كفٍّ يده وانفتحت أساريره وقال: "رائع، إنه شبيه بالمعادن النادرة في ولاية أركنصا". وراح طوال ما بقي من وقت اللقاء يتحدَّث عن جمالات نادرة يحويها بطن الأرض في ولايته، بينما كان روغوفا يصغي إليه مذهولاً مستغرباً كل هذا الحديث.

في مطلع حزيران/يونيو 1998 فشلت المباحثات بين بلغراد والقّادة القوميين الألبان، فيما ازداد تدهوراً الوضعُ العسكري في كوسوفو بمضاعفة المواجهات الطاحنة بين القوات الصربية وجيش تحرير كوسوفو. حتى ذلك الحين كان 15000 لاجئ كوسوفي عبروا الحدود الألبانية.

في واشنطن كان البيت الأبيض مشلولاً تماماً بفضيحة مونيكا لوينسكي وتقرير المحقق المستقل كنيث ستار. و لم يكن على مكتب الرئيس من الملفات الأجنبيّة سوى واحد: ملف العراق، واحتمال إطلاق ضرباتٍ موجعة ضده.

في ذاك الشهر نفسه عقد وزير الدفاع الأميركي (وليم كوهين) لقاءاتٍ مع نظرائه في حلف شمال الأطلسي طالباً إليهم السماح للّجنة العسكرية في الحلف الأطلسي بالتخطيط لتدخُّلٍ عسكري في كوسوفو، ناقلاً إليهم أن الرئيس كلينتون موافق على أي تحضيرات عسكرية يقررها "الحلف" الذي كان خبراؤه وضعوا عدة احتمالاتٍ تبدأ من الأبسط (إطلاق صواريخ كروز) الى الأقوى (نشر القوات البرية). وذهب بعض المخططين الى التفكير باجتياح يوغوسلافيا مقدِّرين الحاجة الى نحو 200 ألف جندي للقيام بهذه العملية. غير أنَّ أياً من المسؤولين السياسيين، في تلك الفترة، لم يكن ينظر جدياً الى ضرورة هذا التدخّل. من هنا قول أحد خبراء "الحلف":

"ربما لهذا لم نفكّر بجسامة النتيجة: هجرة السكان الجماعية. مع أننا خلال سبع سنوات الصراع في يوغوسلافيا كنا نعاين تكراراً للظاهرة: فعام 1992 أبعد صرب البوسنة مئات الآلاف من غير الصرب، وعام 1995 كان 150 ألف صربيّ فرّوا من كرواتيا. فسلاح الإبعاد كان دائماً محورَ الحروب منذ أكثر من قرن في بلاد البلقان".

وفي ذلك الشهر أيضاً وصل ريتشارد هولبروك الى قاعدة جيش تحرير كوسوفو في جونيك. وبعد أسبوع، في كران مونتانا (سويسرا)، عقدَ مع قادة تلك المنظمة الانفصالية لقاءً سرّياً رتّبه رئيس الوزراء الألباني فاتوس نانو الذي كان يعتبر جيش تحرير كوسوفو شريكاً تاماً. فشمال ألبانيا يضمّ قواعد الحركة، وأسلحةٌ تعبُر من هناك الى كوسوفو. وكان هدف نانو إقناع الأميركيين بأن جيش تحرير كوسوفو أصبح شريكاً ضرورياً لهم. لكن هولبروك ظلّ متردّداً وأجاب: "رجالكم في المعسكر قبل أيام هددوني بالسلاح، ولن أغفر ذلك". وكانت المنظمة الانفصالية أصبحت عندئذٍ تسيطر على ثلث البلاد فيما القوات الصربية اتخذت جهة الدفاع.

في تلك الأثناء كان رجلٌ يعرف تماماً طبيعة جيش تحرير كوسوفو تحرّكاً وأهدافاً. إنه جورج تُونيه (46 سنة، يوناني الأصل) مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. ومن عاداته أن يصل يومياً، بدون حلاقة، في السابعة صباحاً الى مقرّ الوكالة في لانغلي (ولاية فرجينيا)، فيدخل مكتبه ويدير أسطوانة أوبرا، ويبدأ عمله على أنغام فيردي أو بوتشينو أو مغنّيه المفضل التينور الأعمى أندريا بوتشلّي.

كانت التقارير بين يديه تصف جيش تحرير كوسوفو بـ"منظمة ماركسية أصولية تسرَّب إليها رجالُ مافيا متورطون بتجارة المخدرات، ويُفيدون من ثرواتهم بها لشراء أسلحة في السوق السوداء". ومن الاتهامات أيضاً ضد جيش تحرير كوسوفو أعمالٌ إتنيةٌ عنيفة ضدَّ مدنيين صرب. وعن تحليلٍ في أحد التقارير: "الخطر الأكبر أن يؤدي دعم جيش تحرير كوسوفو الى النتيجة نفسها لتسليحنا المجاهدين الأفغان وتمويلهم: جنحوا الى صراعات فئوية والى أصولية إسلامية".

وعن معلوماتٍ أُخرى من عملاء المخابرات الأميركية في ألبانيا وكوسوفو أن المحاربين الانفصاليين في وضعٍ جيد، وأن عدة فصائل من جيش تحرير كوسوفو نجحت في الدفاع عن منطقة أوديافو في شمال كوسوفو.

في هذه الأثناء عقد مسؤولون في المخابرات الأميركية والبنتاغون اجتماعات سرية مع قادة في جيش تحرير كوسوفو، ليعرضوا عليهم تزويدهم بأسلحةٍ أوروبيةٍ الصنع مضادةٍ للعربات. وكتب تُونيه ووليم كوهين تقارير الى البيت الأبيض تفصِّل ما جرى في تلك اللقاءات السرية.

ساندي برغر والرئيس كلينتون عارضا وضْع فيتو مباشر. وقال برغر: "لن ينفع الفيتو. فهؤلاء الناس مقاربتهم صعبة". وطلب الرئيس الأميركي من برغر توجيه رسالة واضحة الى القادة الألبان: "لا تعطوا أسلحة للثوّار". لاحقاً، وفي أثناء اجتماعٍ لوزراء الحكومة، اعترض كوهين على القيام بضربات جوية كانت تطالب بها وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت، فقال: "ضربات الحلف قد تضعف الصرب حتى تتيح لجيش تحرير كوسوفو

الانقضاض على السلطة، فكأن طائرات حلف شمال الأطلسي تتحوّل سلاحاً جوياً لجيش تحرير كوسوفو".

أثناءَ تلك الحقبة، وصلت معلوماتٌ عسكرية كثيرة الى قوات الحلف الأطلسي حول وضع القوات الصربية، مصدرها جيش تحرير كوسوفو. وكان ويسلي كلارك نفسُه مهتماً شخصياً بتلك المصادر التي تسرِّب المعلومات إليه بواسطة المسؤولين السياسيين في تيارانا. وكانت قوات "الحلف" وزّعت أجهزة هاتفٍ خليوي على رؤساء الوحدات الانفصالية، طالبةً إليهم الاتصال بالقيادة العامة للمنظمة في بروكسيل عند أي حدث طارئ.

غير أن أركان قوات حلف شمال الأطلسي وقادة البنتاغون، برغم كل التحفظات، ظلوا على اتصال وثيق بجيش تحرير كوسوفو إذ لم يكن لدى الحلف الأطلسي ولا لدى وزارة الدفاع الأميركية معلوماتٌ دقيقةٌ تصف الوضع الواقعي على الأرض، لأن الصور الفضائية وطائرات التجسس تظل غير كافية لإعطاء الصورة الواضحة.

في نهاية ذلك الشهر (حزيران/يونيو)، وفيما كانت واشنطن تستقبل حرّ الصيف، تلقى جورج تُونِيه تقريراً حاراً من مصدر رسمي في تيرانا، عميلٍ للوكالة، جاء فيه: "هدف جيش تحرير كوسوفو جَرُّ قوات حلف شمال الأطلسي الى معركته من أجل الاستقلال، باستفزاز الصرب أكثر وجَرِّهم الى ارتكاب أعمالٍ أشد فظاظة". تلك الملاحظة جعلها تُونِيه في رأس معلوماته اليومية التي ينقلها كل صباح الى الرئيس الأميركي. لكنها لم تُثِرْ أي تعليق.

ابتداءً من 2 تموز/يوليو انتقلت القوات الصربية الى الهجوم المضاد، فعاد الحلفاء يؤكدون معارضتهم قيام كوسوفو إقليماً مستقلاً، ويعارضون تقسيم البلاد. وأقلقت مادلين أولبرايت "إشارةٌ سيئة" جاءت من باريس: "جاك شيراك وليونيل جوسبان يشترطان ربط تدخل قوات حلف شمال الأطلسي بدخول قوات مجلس الأمن".

هذا الأمر طمأن ميلوسيفيتش، وكان واضحاً لدى وزيرة الخارجية الأميركية أن الروس سيضعون الفيتو على بادرةٍ من هذا النوع. وعن مسؤولٍ في وزارة الخارجية: "لم يكن أحدٌ في واشنطن حتى ذلك الحين يتوقع حرباً في كوسوفو، كما لم يكن أحدٌ يرغب في دخول قوات الأمم المتحدة لأنها ذات حجمٍ ثقيلٍ ومعقّد ودقيق الاستخدام. لم نكن نعرف، بعد، أي نوعٍ من الصراع نحن مقبلون على إدارته، بل كان كل واحد (من الرئيس الى وزيرة الخارجية) مقتنعاً بضرورة التحرك العسكري من دون انتظار إذْن مجلس الأمن في الأمم المتحدة".

في هذا السياق، تمّ تجاهل اقتراحين جدّيين كان يمكن أن يؤديا الى حلٍّ تفاوضي، وتجنيب الفرقاء الوصول الى طريق عسكري مسدود، والى الفاجعة الإنسانية التي حصلت.

السفير الأميركي لدى حلف شمال الأطلسي، ألكسندر فيرشبو (عضو سابق لمجلس الأمن القومي في البيت الأبيض) كان واعياً فداحة الموقف، وارتباك الحلفاء، وتنامي خطر الوصول الى طريق مسدود. لذلك، وهو الذي يحترمه زملاؤه لجدارته وكفاءته، أصغوا الى مخططه الذي سمّاه: "وقتٌ لمخططٍ آخَر ينهي اللعبة"، رأى فيه ضرورة استباق الأمر بنشر قوات

حماية دولية في كوسوفو يَضمنُها نشر 30 ألف عنصر من قوات حلف شمال الأطلسي. وإن كان هذا الانتشار سيتم بالقوة، عندها يلزمه 60 ألف عنصر. وأضاف: "سيكون علينا، فوراً أو بعد حين، أن ننشر قواتنا الأرضية، فمصلحتنا كبيرةٌ بالحفاظ على الاستقرار السياسي في جنوب البلقان، ولذا علينا أن نمنع امتداد الصراع واستمراره".

ومن أجل أن تُقنِع الإدارةُ الأميركية رجالَ الكونغرس اقترح فيرشبو "مشاركةً أميركية محدودة". كما اقترح أن يكون الروس (حلفاء الصرب) شركاء في هذا المخطط الذي يحمل أن تقدّمه واشنطن وموسكو معاً الى مجلس الأمن. وختم السفير تقريره بالقول: "هذه المبادرة حول كوسوفو قد تصبح نموذجاً للتعاون بين روسيا وحلف شمال الأطلسي".

هذا التقرير بلغ واشنطن (في 7 آب/أغسطس) برقيةً سرية ومشفّرة الى وزارة الخارجية ومجلس الأمن القومي. لكن وصوله جاء في أسوإ الأوقات. ففي اليوم نفسه دمَّرت القنابل السفارتَين الأميركيتين في كينيا وتانزانيا مُوْقعتين الكثير من الضحايا. وعن أحد المقربين من الرئيس الأميركي أنه "شعر بالعار من تلك الاعتداءات فيما كان غائصاً في العمل مع محاميه لتحضير دفاعه ومداخلته أمام اللجنة العليا التي تحقق في قضية مونيكا لوينسكي". هنا ثَقُلَتْ الضغوط الرئاسية على جورج تُونِيه (مدير المخابرات) ووليم كوهين (سيِّد البنتاغون). وعن مسؤول في الوكالة أنَّ "الرئيس كلينتون أراد بسرعة أن يعرف من أصدر الأوامر بهذه الاعتداءات، وما الغاية من هذا التواطؤ، وأية جهة تقف وراء هذا العمل. عندئذ لم يعد أحدٌ يسمع أنغام الأوبرا في مكتب تُونِيه. ففي تلك الفترة انصبّت 90٪ من

اهتماماتنا على هذه القضيــة، لأن الرئيس طلـب مـن تُونيه أجوبـة سـريعة، وتُونيه طلب منا إثباتاتٍ مقنعة. وأعتقد أننا توصّلنا الى تهيئة حصيلةٍ جيـدة. على أي حال، لم يكن الوضع في كوسوفو وارداً في أيٍّ من تقاريرنا".

بعد أيامٍ من ذلك، وصلت الى الرئيس كلينتــون خلاصـات التقـارير الأولى: الآمر بتلك الاعتداءات هو المليونير السعودي أسامة بن لادن، المنفي في أفغانستان حيث يسيطر على عدة قواعد لحركة "طالبان" (تضمُّ أصوليـين إسلاميين يسيطرون على القسـم الأكـبر مـن البـلاد). وثبُـتَ في ذلـك أيضـاً تورُّطُ السـودان الـذي يعتبره الخبراء الأمـيركيون مقـرّاً لعـددٍ مـن الأعمـال الإرهابية. وعن تقريرٍ لوكالة الاستخبارات الأميركية أن "إيجاد مكان أسـامة بن لادن لم يكن صعباً. فهو عمل لحسابنا سنواتٍ خلال حـرب أفغانسـتان، وكنا زودناه بـالمعدات العسـكرية والمـال الكثـير، ونـادى أيامهـا بشـعاراتٍ معادية للسوفيات لكنه، على ما أظن، كان منـذ ذلـك الحين أصبـح معاديـاً للغرب".

أصـدر كلينتـون أمـره للبنتـاغون بتحضير لائحـة تحـدد أهدافـاً في السودان يمكن أن تدمرهـا صواريـخ كـروز. ويضيـف مراقـبٌ أنَّ "صـاروخ كروز هو الحلم الأكبر لدى كلينتون والسلاح الأكمل لدى إدارتـه". وعـن الكاتب الصحافي وليم سافير أن "صاروخ كروز ينطلق عن بُعـد ولا يـؤذي عسكرياً واحداً، وهذه هي "الطريق الثالثة" المنشودة في الحرب".

ويروي شاهدٌ كان حاضراً لقاءات الرئيس كلينتون ورئيس الـوزراء البريطاني طوني بلير أنهما "مفتونان بالتكنولوجيا الدقيقة، بما فيهـا الحربيـة"، وأنهمـا لم يعرفـا مباشـرةً خطـط الحـرب العالميـة الثانيـة، وإنمـا يعرفـان أن

المواجهات المسلحة تقاد اليوم بصورة مختلفة، أي بوقتٍ أسرع وبخسائر أقل. وهذا أمرٌ مريحٌ سياسياً للرئيس كلينتون الذي (كما قال أحد المراقبين) "يمكنه التأكيد للولايات المتحدة: "بصفتي القائد الأعلى للقوات المسلحة أخوض عمليةً عسكرية ليس فيها خطر على أيّ جندي أميركي. أي باختصار: أنا لا أشن حرباً"، وأظنه كان يفكّر هكذا في قضية مونيكا لوينسكي حين صرَّح: "لم يكن في الأمر إلا مداعبات، ولم أُقِم علاقةً جنسيةً معها"...".

وسط الدوّامة التي كانت تعصف في واشنطن، مرّ مخطط فيرشبو شبه مهمَل. صحيح أن المسؤولين في وزارة الخارجية وجدوه دقيقاً وواقعياً، وإنما (كما صرّح أحدهم) "تجاوزته الأحداث الداخلية". فالرئيس تلقّى هجوماً من لجنة التحقيق العليا التي اتهمته بالكذب، وقد تكون قراراته العسكرية جاءته لتحويل الانتباه عن المشاكل التي يواجهها.

في ذلك الوقت امتزج الخيال بالواقع في شكلٍ مذهل: نزل الى صالات السينما فيلم *"رجال ذوو تأثير"* عن قصة مستشار رئاسي اختلق حرباً مزوّرةً في ألبانيا لتحويل انتباه الرأي العام عن ممارساتٍ جنسية قام بها سيِّد البيت الأبيض. وعن أحد معاوني كلينتون: "خلق الفيلم في واشنطن لغطاً كثيراً، حتى أن أيَّ كوكتيل أو عشاء لم يكن يمرّ من دون أن يسأل مدعوٌّ مدعواً آخر: "طالما أنت تعمل في البيت الأبيض، لا بدّ أنك تعرف متى قرَّر الرئيس التدخل في هذه الناحية الصغيرة قرب ألبانيا، حيث سكّانها يقتتلون. إنها فكرة جيدة طالما لا أحدٌ يعرف تلك البقعة من العالم". ويضيف ذاك المعاون نفسه: "بين هذا الفيلم وهذا الإلماح الى تلك البقعة

الصغيرة قرب ألبانيا، اتخذَت الحالةُ بُعداً سوريالياً: فحتى لو قرَّر الرئيس التدخل في كوسوفو (وهذا لم يكن وارداً) لما كان أمكنه ذلك، فالجميع، أو على الأقل الانتهازيون، كانوا سيتهمونه بأنّ عمله ليس سوى محاولة لتحويل الأنظار عن قضيته الخاصة".

الفصل الخامس

في مطلع أيلول/سبتمبر 1998، كانت جميع التقارير تشير الى أنَّ ما يزيد على 20 ألف كوسوفي باتوا مهجَّرين هرباً من المعارك أو من التجاوزات الصربية. ولم تكن أيةُ ردّة فعلٍ صدرت بعدُ من واشنطن، لغرق سيِّدِها في رمال *العزل* المتحرّكة التي كان لهيبها يُحرقُه أكثر فأكثر.

وفي ذلك الشهر نفسه، عاد من زيارةٍ الى البلقان السيناتور الجمهوري السابق بوب دول (محترمٌ جداً في الكونغرس، وكان خسر معركته الرئاسية أمام كلينتون)، فاستقبلَه الرئيس في البيت الأبيض بحضور ساندي برغر. راح دول (وهو على علاقةٍ ممتازة مع سلطات تيرانا) يشرح فداحة الموقف ويعطي معلوماتٍ دقيقة حول تعاظم ضغطٍ وخوفٍ يتقاسمهما جميع قادة المنطقة بشكلٍ مأساوي. ولاحقاً قال دول إن "الرئيس كان يصغي بانتباه تام"، حتى إذا انتهى العرض ظلَّ الرئيس صامتاً بضع دقائق غارقاً في أفكاره، ثم قال بإيجاز: "أمرٌ مرعب". ويُردف دول بأنَّ برغر "تلفّع بالصمت نفسه".

وما هي حتى غادر برغر الاجتماع، تاركاً دول مع كلينتون الذي اقترب منه سائلاً: "بوب، كم برأيك هم أعضاءُ مجلس الشيوخ الجمهوريُّون الذين سيصوّتون ضدّ *العزل*؟ أتعرف عدد الذين لا يزالون متردِّدين؟".

كان هاجسه الوحيد ألاّ يكونَ أولَ رئيس جمهورية أميركي "يغادر البيت الأبيض بهذه الطريقة الشائنة".

في تشرين الثاني/نوفمبر، وكانت تقترب الانتخابات العامة في مجلس الشيوخ ومجلس النواب، والمراقبون الديمقراطيون يتخوفون من انتصارٍ ساحقٍ

للجمهوريين، قال أحد المراقبين: "كنا مشلولين تماماً. وكان السيناتور ترانت لوت (زعيم الأكثرية الجمهورية) تساءل: "أبعدما تمكّن الصرب من التصرّف على هواهم وبدأوا انسحابهم، جئنا اليوم، قبل ثلاثة أسابيع من الانتخابات، نقرِّر قصفهم؟". باختصار، كنا أمام طريقٍ مسدود: عدم التحرُّك يعرِّضنا لانتقاداتٍ عنيفة، والتدخُّل يعرضنا للشكوك".

في نهاية أيلول/سبتمبر، كان وزراء الدفاع في منظمة حلف شمال الأطلسي مجتمعين في فيلا مورا (البرتغال) حين وصلتهم تحليلاتُ خطة صربية ميدانية تهدف الى القيام بهجومٍ طويل الأمد ضئيل الفعالية، لا يؤدي حجمُه الى تدخُّل قوات حلف شمال الأطلسي. وفي ذاك الاجتماع نقل خافيير سولانا (أمين عام "الحلف") للمجتمعين تعليقاً لديبلوماسيٍّ صربي فيه الكثير من الغمز: "تدمير قريةٍ واحدة فقط كلَّ يوم، يبقي تدخّل قوات الحلف بعيداً".

أما وليم كوهين، فوزّع على الحاضرين مجموعة صورٍ التقطتها طائرات التجسس الأميركية، يظهر فيها تدمير القرى ومركزٍ لتجمُّع قواتٍ من وزارة الداخلية الصربية (10 آلاف عنصر) مولَجة بإبعاد المدنيين وأحياناً بتصفيتهم. ولم يظهر في الصور ولا التقارير، أيُّ تدخُّل مباشر للجيش النظامي.

أحد المشاركين في تلك الاجتماعات، قال: "كان الجوّ العام مضطرباً. وكان وليم كوهين يوزِّع الملفات برميها في الهواء، ويتكلَّم بلهجةٍ حازمة إنما شديدة الحذر، لأنَّ القادة العسكريين في البنتاغون رافضون الدخول في أيّ حديثٍ عن الحرب، ويتجنَّبون الدخول في بحث قدرات

قوات حلف شمال الأطلسي العملانية". وعن وزير الدفاع الأميركي قوله لنظرائه: "إذا كانت قوات "الحلف" لا تشكّل تهديداً لميلوسيفيتش في ظروفٍ كهذه، فأيُّ مبررٍ بعد لهذا "الحلف"...".

بقي سؤاله بدون جواب، وفي نهاية الاجتماع اتفق المشاركون على استبعاد كلِّ إمكانٍ لنشر القوات العسكرية. ويقول مسؤولٌ عسكريٌّ أميركي كبير إنَّ أحداً في الاجتماع لم يثر هذا الموضوع، بل رفع الجميع عيونهم الى السماء وظلَّ المخطط الأرضي في أعماق أدراجهم.

على أن قوات "الحلف" كانت، احتياطاً، رسمت ثلاث مراحل متتالية للضربة العسكرية الجوية إذا واصل الصرب أعمالهم الوحشية في كوسوفو:

المرحلة الأولى: تدمير نحو خمسين هدفاً عسكرياً، في يومين أو ثلاثة.

المرحلة الثانية: توسيع دائرة القصف، لتشمل نحو 300 هدف.

المرحلة الثالثة: تدمير ما بين 800 و1000 هدفٍ جديد.

وعن مسؤولٍ عسكريٍّ أوروبي، قوله: "كنا في الواقع، نواجه سرَّين غامضين: حقيقة نوايا ميلوسيفيتش، وحقيقة قدرات قوات "الحلف" الميدانية. وأرى بصراحةٍ أننا كنا نعرف عن أعدائنا أكثر مما عن قواتنا نحن". وعن خبيرٍ آخرَ قولُه: "كان "الحلف" يشبه سيّارةً أنيقة الهيكل، إنما عمرها خمسون سنة، لم تَسِر عجلاتها يوماً، والكلُّ يسأل إذا كان محرّكها سيدور عند تشغيله".

بالفعل، ولدت منظمة حلف شمال الأطلسي عام 1949، لمواجهة هجومٍ عسكريٍّ محتمل على أوروبا من موسكو وقوات حلف فرصوفيا.

ومنذ ذلك الحين، لم تتدخّل قوات المنظمة ولا مرّةً واحدة (كما يقــول أحـد الخبراء) فلا قواتها العســكرية اسـتعملت أسـلحتها، ولا مخططوهـا اسـتعملوا خططهم بعدما زال الخصم الشيوعي. وظلت المنظمة منذ 10 سنوات حاميـةً لصحراء التتر، شاخصةً الى أفقٍ واسع لامتناهٍ تترقب عدوّاً مفترضاً.

وفي هـذا الموضـوع، يقـول السـير مـايكل روز (ضـابط سـابق مـن القوات البريطانية الخاصة، وقائدٌ سابق في البوسنة): "خلال الحرب البـاردة، كانت منظمة حلف شمال الأطلسي، كلَّ شـتاء، تختـبر خططهـا وآليّـة اتخـاذ قراراتها، بواسطة تجارب معقّدة استيهامية صورية تقوم بها على الكومبيوتر. وكان من شأن تلك التجارب تحديد طاقات قوات الحلف العسكرية الميدانية في مواجهة قوات حلف فرصوفيا، بافتراضـات مختلفـة في توقّـع المعركـة مـع السـوفيات. وفي نهايـة عـدة أيّـامٍ مـن المعـارك الاسـتيهامية كـانت قـوات "الحلف" تخرج دائماً منتصرة. والخطر في هذا النوع من التجـارب (المتكـررة بشكلٍ روتيني) أنها تخلق داخل قوات حلف شمال الأطلسي قناعـةَ أنَّ العـدوّ سيتصرَّف حتماً بالطريقة نفسها التي تمَّ عرضها على الكومبيوتـر. ومـا عـزَّز هذه المقولة، انكسار صدّام حسـين الـذي طبّقـت قواتـه العسـكرية، بشـكل عشوائي، الخطط العسكرية السوفياتية. من هنـا أنَّ قـوات "الحلـف" لم تعـد نفسياً مهيَّأةً للتأقلم مع أيّ طارئ، ومن هنا أنَّ تكرار القول بقصــف جـوي يصيـب الأهـداف المطلوبـة ويجرّ ميلوسـيفيتش الى معـاهدة سـلام، لم يكـن يعكس إلاّ رغبـة نظريـة لـدى المخططـين العسـكريين، بينمـا عمليـاً لم يكـن ميلوسيفيتش يحـترم هـذا المنطـق، بـل يعتـبر أنَّ تركـيزه في الحـرب هـو علـى الاحتفاظ بكوسوفو لا على تجنّب الضربات الجوية".

الفصل السادس

في 1998/10/9 طار ريتشارد هولبروك الى بلغراد لإبلاغ ميلوسيفيتش إنذار "الحلف"، ومحاولة الوصول الى اتفاق. بعد خمسة أيام (وكما دعماً لمهمة هولبروك) أعلن خافيير سولانا (أمين عام "الحلف") عن إعطائه "الأمر بتحريك المخططات العسكرية".

أمضى هولبروك تسعة أيام يفاوض الزعيم الصربي ثنائياً (لاحقاً، همس لأحد المقربين: "أسعد لحظات تلك الفترة كانت ألا يُطلَب مني الرجوع مجدَّداً الى بلغراد"). ودارت مفاوضاته على جبهتين: قبول ميلوسيفيتش بوقف إطلاق النار في كوسوفو، وسحب قواته العسكرية وقوات الشرطة الخاصة الى المواقع التي كانت موجودة فيها قبل 1998.

سأل ميلوسيفيتش بلهجة هادئة:

– وإلا... ماذا سيحصل؟

لم يأتِ الجواب من هولبروك، بل من مرافقه الجنرال شورت (كبير ضباط القوات الجوية):

– عندي طائرات للمراقبة وطائرات للقصف. وأنت تقرر، سيدي الرئيس، أيّها أستخدم.

وباللهجة الهادئة نفسها جاء جواب الرئيس اليوغوسلافي:

– إذاً، أنتم ستقصفوننا.

في نهاية تلك السلسلة الطويلة من الاجتماعات، أوحى ميلوسيفيتش بأنه يرضخ، فوعَدَ برفع الضغط عن كوسوفو، وإتاحة عودة اللاجئين، وانسحاب قواته، وتركيز نظام حكم ذاتي، والسماح لطائراتِ مراقَبةٍ تابعة

لـ"الحلف" بالتحليق فوق كوسـوفو. لكنه اشترط أن يتم كل ذلك تحت مراقبة 1800 عنصر من منظمة الأمن والتعاون الأوروبية. رضي هولبروك بذلك، وبتأكيد سلطة صربيا على كوسوفو. على أن هدف ميلوسيفيتش الحقيقي بدا في الطلب الأخير الى هولبروك: إلغاء إجراءات "الحلف" في السماح بالقصف الجوي الفوري.

هذا الالتزام الأخير رفضه هولبروك وطار الى بروكسيل (المقر العام لقوات "الحلف") فوصلها في الثانية بعد منتصف الليل ليعلن: "وصلنا عملياً الى اتفاق". فوافق قادة "الحلف" على "تعليق" إجرائهم بالقصف الجوي و لم يوافقوا على إلغائه.

في اليوم التالي، عاد المفاوض الأميركي الى بلغراد ليفاجأ بميلوسيفيتش ثائراً: "قدمت تنازلات عديدة، لكن قوات الحلف لم تتخلّ عن شيء من قراراتها. إنه إعلانٌ حقيقيٌّ للحرب"، مع أن الجوَّ في واشنطن وفي العواصم الأوروبية بدا مرتاحاً، وقررت لندن وباريس وبون إرسال قوة عسكرية الى مقدونيا، مهمتُها إجلاء مراقبي "منظمة الأمن والتعاون الأوروبية" عند حصول تدهور مفاجئ.

الولايات المتحدة رفضت الاشتراك في هذه القوة، وكان كلينتون منشغلاً باقتراب استحقاق انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر، ويخشى ردود فعل الجمهوريين على إعلان إطلاق القوات البرية. وحين أثارت مادلين أولبرايت الموضوع، أجابها متوتراً: "مادلين، قلتُ إني لن أسمح بنزول جندي واحد الى الأرض، حتى ولو كان من قوات الإجلاء".

في البنتاغون، تبنى وليم كوهين الخطة نفسها. وفي اجتماع مغلق مع لجنة من الكونغرس قال: "لو سألتكم السماح بإنزال قوات برية، لحزرت سلفاً أسئلتكم:

1- وأين هم حلفاؤنا؟

2- من يموِّل المعركة؟

3- ما عدد رجالنا، وكم سيطول بقاؤهم هناك، وما خطتنا لإخراجهم؟".

في 1998/10/25 وصل الى بلغراد ويسلي كلارك (القائد الأعلى لقوات حلف شمال الأطلسي)، يرافقه معاونه الجنرال الألماني ناومان. لم يكن لمنظمة "الحلف" جهاز استقصاء ومخابرات، لكنَّ المعلومات المتوفرة لديها (من مخابرات الدول الحليفة) أشارت جميعُها الى وضع مقلق: رغم الاتفاق، استمرت المواجهات في كوسوفو، ونكث ميلوسيفيتش بالوعود فلم تنفِّذ قواتُه الصربيَّة أيَّ انسحاب. وعند لقائه المفاوِضَين (محاطاً بكبار معاونيه) في إحدى قاعات القصر الرئاسي، كانت لهجته حازمة، بل قاطعة أحياناً، وكان الضباط حوله يهزون برؤوسهم موافقين على أقوالٍ له جاءت مزيجاً من الفظاظة وعدم الثقة. وحين سأله الجنرال كلارك لماذا القواتُ المتفق عليها لم تغادر كوسوفو بعد، كان جوابه جافاً:

- متفق عليها؟ لم يتم الاتفاق على شيءٍ من هذا. اتصل الآن بهولبروك، وليقلْ لك بالضبط ما كان الاتفاق.

- هذا غير وارد.

قالها الجنرال وِهبّ واقفاً صوب خارطة فتحها وأشار فيها بوضوح الى مواقع قوات صربية (جيش نظامي، رجال شرطة، قوات مناصرة للجيش) ما زالت تحتل مواقعها في كوسوفو، منتهكةً بذلك بنود الاتفاق.

نظر ميلوسيفيتش ملياً الى الخارطة، ثم استدار هازّاً برأسه قائلاً:

– أبداً. لم يعد لنا أية قوة إضافية في الإقليم. على العكس: فلتحترمْ قوات الحلف الأطلسي تعهُداتها الآن. على أيٍّ حال، قليلاً بعد، ونُبيد إرهابيي جيش تحرير كوسوفو.

وتطلّع الى ضابط أمامه، فأردف هذا:

– صحيح. بعد أسبوعين على الأكثر، يكون جيش تحرير كوسوفو انتهى عسكرياً.

ساد في القاعة سكوتٌ متوتر، وظلَّ العسكريون اليوغوسلاف جامدين. كان كلارك وناومان جالسَيْن على كنبة، وعن يسارهما ميلوسيفيتش على مقعدٍ يضرب أحياناً بكفيه مسنديه تأكيداً لكلامه.

تطلع كلارك الى مضيفه، وبلهجة هادئة وموزونة بادره:

– سيدي الرئيس، لو تفكر واقعياً، لما كنت تصر على تلقّي الضربات الجوية.

رفع ميلوسيفيتش يديه بحركة قدرية، فوقف الرجلان وتصافحا ببرودة، ثم خرج الرئيس الصربي يتبعه ضباطه، فساد في الصالة صمت أثقل من الليل الكثيف في الخارج.

بقي الجنرال مومشيلو بيريسيتش وحده مع نظيرَيه الغربيَّيْن، يتبادلون كلاماً عادياً، الى أن قال لهما:

– أتسمحان بمرافقتي؟

مروا أمام لوحة لرامبرانت (معلقة في إحدى القاعات، وصفها أحد مخططي "الحلف" – المكلفين تحديد الأهداف العسكرية– بأنها القطعة الفنية الوحيدة ذات القيمة في القصر الرئاسي، مع أن أصليَّتها غير مضمونة) حتى وصلوا الى باب فتحه قائد الجيش الصربي ودعا كلارك وناومان للدخول منه الى مكتبٍ أغلق وراءَهما بابه وتوجَّه الى جهاز تلفزيون أداره ورفع له صوته. ثم اقترب من ضيفَيه وقال لهما همساً (كما ليهرب من الميكروفونات اللاقطة في الغرفة): "الجيش اليوغوسلافي آخر مؤسسة ديمقراطية باقية في بلادنا. وكبرى الكوارث أن تدمّره قوات حلف شمال الأطلسي. حذّرتُ الرئيس ميلوسيفيتش من أنه لا يستطيع إعلان الحرب على العالم كله".

وعن الجنرال ناومان أن بيريسيتش كان قلقاً مضطرباً، و"كان يسعى بكل الوسائل الى إنقاذ جيشه، لدوافع وطنية بحتة".

يقول مسؤولون (بينهم ناومان) إن بيريسيتش ليلتئذٍ رمى الى توجيه تنبيهٍ (ولو مبطّن) الى محاورَيه عن الاستعدادات العسكرية المتخذة في كوسوفو.

في ذلك الوقت، كانت نوايا ميلوسيفيتش الفعلية تزداد غموضاً في أذهان المسؤولين الغربيين. وعن تحليل سرِّي رفعته وكالة الاستخبارات الأميركية الى الرئيس كلينتون وكبار معاونيه (1998/11/4) أن "ميلوسيفيتش قد تؤثر فيه الضغوط الخارجية. وربما رضي ببعض الحلول، من الحكم الذاتي الى النظام المؤقت. فهدفه النهائي أن يبقى في بلغراد القائدَ الأوحد". وفي ذلك التحليل أيضاً أنه "إذا شعر بالخطر عليه، قد يقبل بنظام

جديد لكوسوفو، لأن الغرب يهدد باستخدام طاقة عسكرية ستسحق قواته".

قرأ كلينتون التحليل من دون أي تعليق. وعن شاهدٍ أنه "كان يمر من حدثٍ الى آخر، كمرشح في حملة انتخابية لا كرئيس يزاول مهامه فعلياً". وفي تشرين الأول/نوفمبر كان يركز على مفاوضات واي بلانتايشن (محاولاً تثبيت اتفاق إسرائيلي فلسطيني)، وعلى انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر. لم يكن يتدخل مباشرةً إلاّ حين يصبح الملف مشتعلاً ويصعُبُ حصرُ نارِه.

لم يكن ملف كوسوفو بلغ ذاك الحدّ بعد. ولعل كلينتون، إثْر توقيع اتفاقات دايتون (حول البوسنة – 1995)، كان نسي تلك المشكلة المعقّدة وما تشكله من قنبلة موقوتة.

ميدانياً، كان التوتر يتضاعف. والصور المأخوذة من الأقمار الصناعية ومن طائرات التجسس كانت تُظهِر بوضوحٍ تزايُداً في تسلُّل قوات جديدة من صربيا وفي تكثيف العتاد العسكري. وجميع المعلومات الواردة من المخابرات الأميركية تؤكد عزم جيش تحرير كوسوفو على استفزاز القوات الصربية لجرِّها الى القيام بأعمال وحشية جديدة تستوجب تدخل قوات حلف شمال الأطلسي الى جانب تلك المنظمة الانفصالية، مما يسهِّل فرض استقلال كوسوفو.

في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر وصلت الى المخابرات النمساوية معلومةٌ مهمة تفيد بأنَّ "السلطات في بلغراد تهيِّئ منذ أسابيع تدخُّلاً قوياً في كوسوفو، قوامه عشرات آلاف الجنود المحضَّرين للتوجه الى الإقليم. وكان

لدى النمساويين مخبرون في قلب القيادة اليوغوسلافية تمكّنوا من الحصول على كلمة السر لتلك العملية، وهي "بوتوفكا" (حُدوة الحصان)، وهدفها "طرد" مئات آلاف الألبان من "كوسوفو"...".

وصلت هذه المعلومة الى مكتب الجنرال ويسلي كلارك (في بلجيكا). ومكتب جورج تونيه (في واشنطن)، فتوزّعت على جميع المسؤولين السياسيين في "الحلف". ولم يتحرّك أحد. وعن مستشار وزير دفاع أوروبي: "في الواقع لم يؤمن أحد بجدوى هذه المعلومة، أو بالأحرى لم يشأْ أحدٌ أن يصدّق انقياد ميلوسيفيتش الى هذه الدرجة من التطرّف. وكان كلارك، في مقرّ "الحلف"، نبّهنا الى أنَّ الصرب يهيئون هجوماً كبيراً في مطلع الربيع. وكنّا وجدنا ذلك معقولاً، ويمكننا النجاح في الحيلولة دونه بالطرق الديبلوماسية".

على أنَّ ميلوسيفيتش كان، في مطلع تشرين الثاني/نوفمبر، فصل قائد قواته الجوية الجنرال فيليكوفيتش، وقائد الأمن الداخلي جافيتشا ستانيسيتش. وفي نهاية الشهر نفسه (ووسط ذهول الجميع) خلع الجنرال بيريسيتش الذي سبق له (كما أسلفنا) أنْ باح بقلقه قبل نحو شهرٍ أمام ويسلي كلارك.

هكذا كان الزعيم الصربي (وعلاقاته مع أركان جيشه اتسمت دائماً بالصعوبة والخشونة والحذر) يُبعد كبار ضباطه حين يَفقد ثقته بهم، ويستبدلهم بآخَرين مطيعين له ومستعدين لتنفيذ أوامره فوراً. انطلاقاً من هذا المبدإ عيَّن قائداً جديداً للجيش: دراغولجوب أوجدانيتش، وقائداً آخر للقوات المسلحة في كوسوفو: نيبوزا بافغوفيتش.

هذه التغيرات أثارت تطوُّراً مقلقاً. فقائدُ الجيش الجديدُ ينتمي الى حزبٍ سياسي أسسته زوجة ميلوسيفيتش، وقائدُ المخابرات الجديد راد ماركوفيتش صديقٌ شخصيٌّ لزوجة ميلوسيفيتش الذي بدا، وسط وحدته ورُهابِه، يستند أكثر فأكثر الى زوجته.

في 1998/11/11، وصل الى بريستينا (عاصمة كوسوفو) وليم والكر، الدبلوماسي الأميركي المكلّف إدارة 1800 مراقب من منظمة الأمن والتعاون الأوروبية. على أنَّ أولئك المراقبين آنئذٍ لم يكونوا يتعدّون 300 (من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة) لمراقبة وقف إطلاق النار وتنفيذ الاتفاقات التي انعقدت في تشرين الأول/أكتوبر.

في الجهة الأخرى من الحدود (مقدونيا) انتشرت قوات إجلاء فرنسية وبريطانية أثارت غضب ميلوسيفيتش الذي صرخ في وجه مبعوث أوروبي جاء يفاوضه: "أنا متأكّدٌ أنَّ هذه الفِرَقَ طليعةُ جيش سيغزونا". وفي هذا الكلام سخريةٌ غريبة أمام ضخامة استعدادات عسكرية ضخمةٍ كانت تتحضّر لمواجهة حكم بلغراد.

وإذ كان ميلوسيفيتش حتى ذلك الحين لا يعتمد لعملية الضغط وبسط النظام في كوسوفو إلاّ على قوّاتٍ من وزارة الداخلية وتنظيماتٍ رديفةٍ للجيش، اضطُرَّ عندئذٍ الى تحرُّكٍ سريع: دمج الجيش النظاميّ الثالث المتمركز في كوسوفو ووحدات رجال الشرطة الموجودين هناك.

الفصل السابع

في 1999/1/15، كانت واشنطن مشلولةَ الحركة تحت بساط الثلج والجليد. وبُعَيْدَ الظهر، انعقد في "غرفة الأوضاع" (قاعة اجتماعات تحت الأرض في البيت الأبيض مخصَّصة للّقاءات الطارئة) اجتماعٌ روتينيٌّ ضمَّ مادلين أولبرايت ووليم كوهين وساندي برغر وجورج تونيه والجنرال شالتون (قائد الجيش)، لبحث موضوع روتينيّ: كوسوفو. وكان الجميع متّفقين على اعتبار ميلوسيفيتش نكثَ بجميع التزامات تشرين الأول/أكتوبر: ليس فقط أنّ قوّاته لم تنسحب بعد، بل لا تزال تزدادُ، ويزداد معها الضغط على الألبان. وظلَّ كلٌّ واحدٍ على موقفه: مادلين أولبرايت تصرُّ على ضرورة التهديد باستخدام القوة لإرغام الصرب على تثبيت اتفاقٍ معهم حول حكم ذاتي في كوسوفو. لم يوافقها أحدٌ على ذلك: كوهينُ كان يرفض كلّ تفكيرٍ بالإنذار أو التهديد، برغر كان يؤمنُ بإمكان احتمال الضغط بعدُ في كوسوفو، والجنرال شِلتون كان يستبعد كلّ فكرةٍ للتدخل العسكري. واتفق المجتمعون على ضرورة التريّث، في نهاية ذاك الاجتماع الذي نجم عنه تقريرٌ سريٌّ من 13 صفحة، عنوانه: "ستراتيجيا في كوسوفو"، كلمته السرية "الوضع كما هو، ولكنْ...". وحين عادت مادلين أولبرايت الى مكتبها في الطابق السابع من وزارة الخارجية، صرَّحت بتوتر: "إننا نشبه جرذاناً تدور حول الدولاب في قفص"، ملْمِحَةً الى أن الوضع يراوح مكانه في دوامة.

الرئيس كلينتون كان غائباً (كما في معظم تلك الفترة) ويعمل مع محاميه على تهيئة الدفاع عنه في مجلس الشيوخ.

في اليوم التالي، قُبَيل الساعة السادسة صباحاً، استيقظ جيم شتاينبرغ (نائب رئيس مجلس الأمن القومي) على هاتف وليم والكر (السفير المكلّف مراقبةَ احترام وقف إطلاق النار). كان والكر متوتراً وغاضباً، لأنّهُ وصل من

راتشاك (جنوبيّ كوسوفو) حيث اكتشف 45 جثة مشوَّهة لألبان (بينهم طفلٌ) معظمهم مسنّون يرتدون ثياب العمل، أردتهم رصاصاتٌ في عيونهم أو جماجمهم.

مادلين أولبرايت (التي تستيقظ عادةً في الرابعة والنصف فجراً) تلقّت النبأ من الإذاعة، فاتصلت فوراً بساندي برغر الذي أجابها وهو نصف نائم: " لم أعد أفهم شيئاً. المخابرات أفادتنا بأن الهجوم الصربي لن يبدأ قبل الربيع". فأجابت أولبرايت بسخرية متوترة: "ولكنْ، كما ترى، الربيعُ هذا العام بدأ باكراً في كوسوفو".

والكر وصف المجزرة بـ"جريمة ضدَّ الإنسانية". وتفشّى الخبر في كلّ أنحاء العالم. وكانت أولبرايت تعرف أنَّ ردة الفعل العاطفية على هذه المأساة الصارخة سوف تتلاشى سريعاً، وأنَّ عليها فوراً إقناع الرئيس وسائر أعضاء الحكومة بوجهة نظرها.

بلغراد واجهت استنكاراً دولياً غاضباً، ولكنها ادَّعت براءتها التامة من تلك المجزرة، وأعلنت أن السفير والكر "غير مرغوب فيه".

استغرق الحدث أياماً لجمع عناصره واستيعاب ما حصل في راتشاك: الجيش حاصر القرية، وبادرت قوات الشرطة، مدعومةً من قواتٍ رديفة للجيش، الى جمع السكان وتصفية 45 منهم.

في 1999/1/19، اجتمع أعضاء الحكومة في البيت الأبيض (بغياب بيل كلينتون الذي كان يضع اللمسات الأخيرة على خطابه السنوي عن "حال الاتحاد" ليلقيه مساءً أمام الكونغرس). عرضت مادلين أولبرايت مخططها ضدَّ النظام الصربي: إنذارٌ جديد من قوات حلف شمال الأطلسي، تهديد بالقصف، إرغام ميلوسيفيتش على القبول بنشر قوات برية من حلف

شمال الأطلسي كي تراقب تطبيق الاتفاق بانسحاب معظم قوات الأمن وتالياً تثبيت حكم ذاتي موسع في إقليم كوسوفو.

بعد عرض أولبرايت قال ساندي برغر: "أشكُّ بنجاح اقتراح نشر القوات في كوسوفو". ووافقه كوهين، وكذلك شِلتون (كان مسؤولاً سابقاً في "القبعات الخضر") وهو أضاف: "علينا أن نستشرف بانتباهٍ إمكان قيام حوادث داخلية قد يسببها وجود جنودٍ أميركيين داخل كوسوفو".

وعن أحد المشاركين في الاجتماع: "لم يكن أحدٌ يريدُ دخول كوسوفو، وكان الجميع يعرفون أنَّ الرئيس أوّل مَن سيرفض هذا الاقتراح". ولكن يومها، وتحت وطأة مجزرة راتشاك، أصرَّت أولبرايت على رأيها فتمَّت الموافقة على اقتراحاتها، وعلى نقلها الى الرئيس.

بعد ساعاتٍ، كانت أولبرايت في موسكو، حيث الروس، ولو من موقع أضعف، ظلّوا يحتفظون بـ"قدرة إفشال هذا الملف". فهم نظرياً قريبون من الصرب (السلافيين مثلهم)، وهم نظرياً يستطيعون الاعتراض على فيتو مجلس الأمن، إن لم يكن بدٌّ من موافقةٍ في الأمم المتحدة. وهذا ما كنا نتجنّبه بأي ثمن".

على أنَّ وزيرة الخارجية الأميركية كانت تريد ضمَّ القادة الروس الى خيارات "الحلف". ومساءَ وصولها، دعاها نظيرها إيغور إيفانوف الى حضور حفلةٍ لفرقة البولشوي، فشاهدت عرض *"لاترافياتا"* في المقصورة الرئاسية التي يغطي أرضَها السجادُ الأحمر. وفي فترة الاستراحة، فيما هي تتذوّق الشمبانيا والكافيار، سألت نظيرها إيفانوف:

– أتظنُّ أنَّ إنذاراً شديدَ اللهجة لميلوسيفيتش يدفعه الى توقيع اتفاق؟

يبدو أن السؤال فاجأ إيفانوف فأجابها: "كلا، لا أظن".

وحين غاص بيل كلينتون (أخيراً!) على هذا الملف، فإنما باقتناعٍ يَدين في معظمه لما قالته له مادلين أولبرايت قبل أيام في المكتب البيضَوي إن "سياسة ميلوسيفيتش القومية تستند الى الرهان على كوسوفو. من هنا، على الغرب منعُه بأيِّ ثمنٍ من لعب هذه الورقة التي تتيح له خلق حالةٍ من الفوضى".

وعن أحد كبار المساعدين في وزارة الخارجية أنَّ "أولبرايت ظلّت أسابيع تُقنِعُ الرئيس والأوروبيين بفكرة القصف، عبر تصوير ميلوسيفيتش "شيطاناً رجيماً" لا تردعه إلاّ القوة. وقد يكون هذا صحيحاً، لكنَّ دفعَ الأمور الى تطرفها الأقصى ليس حلاًّ فعّالاً، أقلّه ديبلوماسياً".

كانت مادلين أولبرايت تتصرَّف على أنها نتاجٌ صافٍ من ميونيخ، وحصيلةٌ مزدوجة لتشامبرلاين ودالادييه معاً. ولذا كانت تقول: "أنا آتيةٌ من منطقةٍ شهدت أخطاء كبرى لأنَّ القادة فيها تردّدوا طويلاً قبل أن يقرروا التحرك كما يجب. أنا مؤمنةٌ بقدرة أميركا، وفلسفتي السياسية ورؤاي في السياسة هي التي جعلت مني متطرفة. ولذا أنا فخورةٌ بمواقفي من كوسوفو".

من جهةٍ أخرى، صدمَ الرئيسَ الأميركي ما سمعه من وليم والكر: "خدمتُ في عدة مناطق من العالم كانت تشهد حروباً، وعاينتُ فظاعاتٍ كثيرة. لكن ما شهدت هناك يتخطّى كلّ ما عرفت".

عندها أدرك بيل كلينتون أنه لم يعد يستطيع التراجع. كان أمام مشكلتَين: أولى مع الجيش والأخرى مع الحرب.

1) مع الجيش: خلال حرب فيتنام كان تهرَّب من التجنيد الإجباري، واعترف لاحقاً أمام مقرَّبين منه أنه يومها "غشَّ" المؤسسة العسكرية. وحين زاره عام 1992 ضباطٌ كبارٌ من الجيش، لاحظوا ارتباكه

في تأدية التحيــة العسـكرية بشـكلٍ صحيـح، مما استوجب إعطـاءه دروسـاً وتمارينَ مكثّفةً علّمته كيف يؤدي التحية العسكرية.

2) مع الحرب: كان لفشل الإنـزال الأمـيركي في الصومـال، ومقتـل بعض الجنود الأميركيين، أثرٌ مباشر في جعْلِهِ متحفّظاً على إرسـال الجيـش الأميركي الى ساحات الحروب. وقد تكون قضية مونيكا لوينسكي، عقّدت أيضاً علاقاته مع الجيـش (المفـروض أنهـا مزيـجٌ مـن المثاليـة والشـفافية): إذا كان المحيط العسكري عابقاً بالصلابة الخلقيــة، فهـل القـائد الأعلـى للقـوات المسلحة (وهو فارٌّ سابقٌ، وزانٍ حالي) يملك الرصيد الكـافي لإرسـال شـبابٍ أميركيـين يموتون في الجهة الأخرى من الأرض؟

عن أحد كبار المعــاونين في وزارة الدفـاع: "البنتـاغون عـالَمٌ غريـب تمامـاً عـن كلينتـون. ولـذا عيَّـن علـى رأس وزارة الدفـاع الجمهـوريَّ وليـم كوهين لأنه قادر على التعامل مع هَرَمية البنتـاغون مـن جهـة، ومـع أعضـاء لجان الدفاع في الكونغرس من جهة أخرى".

ولهذه الأسباب نفسها، استبعد مرشّحه لقيادة الجيش الضابط الطيّار رالستون، لأنه هو الآخر متورّط بفضيحة زنى قديمـة، وعـاد فاختـار هـنري شِلتون، وهو – عدا طوله اللافت (1,95م) – زوجٌ مثالي ووالدٌ مثالي اختار اثنان من أولاده الثلاثة أن ينخرطوا في الجيش.

في تلك الحقبة بالذات، باح بيل كلينتون (المنشغل والمهموم) لمرشـده الأب فيليب ووغامان: "لا أحب استخدام القوة العسكرية. وسـوف أتجنّـب ذلك ما استطعت. أريد أن أكون داعيةَ صلحٍ وسلام، لا متسـبباً بقتـلِ أبنـاء بلادي".

الفصل الثامن

عن أحد المقرّبين من الرئيس كلينتون، أن "التهديد بعزله كان يضغط عليه ويُرعِبُهُ من صدور قرارٍ يقذفه الى مكانٍ مذِلٍّ في التاريخ. وإذا به يكتشف فجأةً أنَّ نزاعاً بعيداً نشبَ أمامه، يتطلَّب منه خياراتٍ ذاتَ انعكاسٍ هو الآخَر على تاريخه السياسي، في أخطر أزمةٍ سياسية خارجية يواجهها منذ تسلّم مهماته".

وهو – لدى قراءته التقارير عن المجازر ضدَّ الشعب الألباني، ولدى مشاهدته على شاشة التلفزيون آلاف اللاجئين الهاربين من كوسوفو- قال: "هذا غير مسموح. يذكّرني بما لاقاه اليهود أثناء الحرب. لم يعد مسموحاً عدمُ التحرُّك".

كانت بلاد البلقان، وهو يجهلُ تاريخَهَا وواقعها، تبدو له "كابوساً حقيقياً" و"مستنقعاً يمكن أن ينزلق فيه أعمقَ وأطولَ مما حصل في فيتنام".

وعن ضابطٍ كبيرٍ في وزارة الخارجية، أنَّ "كلينتون، وهذه واحدةٌ ن ميزاته، يشاركُ كبار القادة الأوروبيين النفسية نفسها التي أطلقت في السبعينات تيّار "مارِسِ الحبَّ لا الحرب"...".

ين جميع أولئك القادة، قد يكون طوني بلير هو الأقرب الى شعار ذاك التيار. لذا، حين جاءه هاتفٌ طويلٌ من المكتب البيضَوي (1999/1/21) قال: "أمامنا حلان: إطلاق القصف فوراً رداً على مجازر راتشاك، أو محاولة إيجاد حلٍّ ديبلوماسي قد يوصل الى نشر قوات حفظ السلام".

وإذ بدا الرئيس الأميركي متردِّداً، أضاف بلير: "لن يكون لهذه القوات أن تحارب ، بل أن تكون جزءاً من مخطط الحلّ الشامل". فأجاب كلينتون عندئذٍ: "موافق. إذا تورَّطنا في عملية عسكرية قبل تركيز مخطط

سياسي، نواجه مشكلة صعبة، إذ سيكون للمعسكر المقابل، في أية لحظة، أن ينطلق في استفزازاتٍ لن يكون رجالنا مستعدين لمواجهتها".

وعن جيش تحرير كوسوفو وأهدافه والتباساته، أضاف كلينتون: "أنا مقتنعٌ بأنّهُ يخترقُ اتفاق وقف إطلاق النار، مثل ميلوسيفيتش، بل يقوم أكثر منه بأعمال عنف. ويجب إبلاغ قادته أن يخفّفوا من تجاوزاتهم إذا أرادونا أن نكون فاعلين".

وهنا قال بلير: "تبقى المشكلة الأخرى: إقناع ميلوسيفيتش بالأمر، وردع جيش تحرير كوسوفو عن الالتفاف على جزءٍ من السكان ليس راضياً به".

ولم يدخل كلينتون وبلير قَطٌّ في تفاصيل الضربات الجوية ولا في احتمال فشل القصف. فحتى تلك الفترة كان كلُّ شيءٍ لا يزال نظرياً، والحرب ضدَّ صربيا لم تكن سوى افتراض.

ومن جديدٍ عاد ويسلي كلارك وكلاوس ناومان يجتمعان على انفرادٍ بميلوسيفيتش الذي أعدَّ غداءً لضيفَيه فرفضا تناول أيِّ طعامٍ وأيِّ شراب. في الاجتماع أثار كلارك انتهاكات اتفاق تشرين الأوَّل/أكتوبر المتكررة وتجاوزات الصرب وبمجزرة راتشاك، وفتح أمامه ألبوماً من الصور الشواهد. فانفعل ميلوسيفيتش واحمرَّ غضباً وأدار وجهه قائلاً: "هذه ليست بمجزرة. هذه صورٌ مركّبة. هؤلاء ليسوا ضحايا بل إرهابيون قُتلوا أثناء صداماتهم مع قوى الأمن، ثمَّ جاء الثوار وغيَّروا لهم ثيابهم ليظنَّ الرأي العام أنهم فلاحون أو مزارعون، ثمَّ سملوا عيونهم وأطلقوا رصاصاتٍ على رؤوسهم للإيهام بالمجزرة. هذه هي الحقيقة".

أصغى العسكريان إليه مغتاظَين، ثمَّ قال الجنرال كلارك:

– قوات حلف شمال الأطلسي جاهزة للقصف.

وإذ لاحظ أن ميلوسيفيتش لم يسمعه، أردف بنبرةٍ باردة:

- أحذّرك: إذا لم تطبّق صربيا هذا الاتفاق، فقادة "الحلف" السياسيون جاهزون لإعطائي الأمر بإطلاق طائراتنا.

عندها انتفض ميلوسيفيتش وقال غاضباً:

- وتجرؤ أن تهدد صربيا؟ أنت فعلاً مجرم حرب.

(لاحقاً أسرَّ كلارك لمقرَّبين منه: "ظننّا أننا دفعناه الى الحدِّ الأقصى، وأيقنّا أنْ لم يعد أمامه أيُّ مفرّ. غير أنَّ ذاك اللقاء لم يجعلْه قطُّ يحيد عن أهدافه").

كانت أزمة كوسوفو تخفي سرّاً آخر: كيف ظلَّ ميلوسيفيتش حتى اللحظة الأخيرة سرّاً بالنسبة للقادة الغربيين، رغم معلوماتٍ سريةٍ كثيرةٍ كانت تبلغهم عنه منذ سنوات؟ فمنذ مطلع التسعينات، وتقارير المخابرات "تسرِّب" أصغر التفاصيل عن الرئيس الصربي، وتخلُص جميعها الى أنّهُ "متقلّبٌ وغير مستقر". وأكثر: ذات يومٍ اقتيد أحد مستشاريه السياسيين سراً الى مركز وكالة الاستخبارات الأميركية في لانغلي (ولاية فرجينيا) وتمَّ معه التفاوض في إمكان الانقلاب عليه، استعانةً بجزءٍ من الجيش يمكن أن ينقلب ضدّه. لكنَّ المشروع فشل لأن الأشخاص الضالعين فيه عُزِلوا من مناصبهم. ولم يعرف المسؤولون في المخابرات الأميركية إذا كان أولئك العملاء انكشفوا فعلاً، أم انهم دخلوا في اللعبة عمداً كي ينقلوا الى بلغراد حقيقة المعلومات المتوفرة لدى المخابرات الأميركية.

خلال مفاوضات 1995 (في قاعدة دايتون الجوية) حول تسوية النزاع في البوسنة، كانت المخابرات الأميركية ركّزت ميكروفونات سرية داخل الشقق التي نزل فيها ميلوسيفيتش وأعضاء البعثة الصربية، مع تركيزٍ خاص، من "وكالة الأمن القومي" (المسمّاة "الأخ الأكبر"، وقاعدتها مدينة

فورت ميد في ولاية ميريلاند) على ميلوسيفيتش شخصياً واجتماعاته السرية.

وعن هاريسون سالزبوري (كاتب افتتاحيات سابق في الـ"نيويورك تايمز") أنَّ "وكالة الأمن القومي هي أغرب مخلوق للتجسس الحديث. ولو سألتُ أحداً عن أكبر وكالة استخبارات في بلادنا، لسمَّى وكالة الاستخبارات المركزية أو مكتب الاستخبارات الفدرالي. لكنَّ الواقع أن وكالة الأمن القومي أكبر وأقوى، ويندر ألاّ يعرفها واحدٌ من كلِّ عشرة أميركيين. فهي تملك ميزانية لامحدودة، وعشرات مراكز التنصُّت في جميع أنحاء العالم، ويمكنها التجسس باستمرار على الأقمار الصناعية، وعلى أصغر تفاصيل المباحثات واللقاءات والاجتماعات، في البلدان الصديقة كما في البلدان العدوَّة. وفي مركزها الرئيسي أجهزة كومبيوتر ضخمة مبرمجةٌ لفكِّ رموز العبارات وكلمات السرّ، ما يمكِّنها من التنصُّت وتسجيل ملايين الحوارات يومياً في كلِّ أنحاء العالم".

هذه الوكالة (مركزها في وسط حديقةٍ عامةٍ هائلة تبعُد 40 دقيقة عن واشنطن) تتلقّى في يومٍ واحد ما يعادلُ ملايين الكتب المفهرسة في مكتبة الكونغرس. فهي مثلاً في العراق استُخدِمَت لاكتشاف الأماكن التي خبّأ فيها صدّام حسين أسلحته الكيماوية والحيوية، مستخدمةً لذلك ثمانية أقمار تجسس، استطاعت الوصول الى أجسامٍ على الأرض بطول 10سم.

وكذلك محطة هذه الوكالة المركّزة في إمارة البحرَين، تمكّنت من التنصُّت على حوارات القادة العراقيين، حتى عبر هواتفهم النقالة، فيما كانت شبكةٌ من 30 جهاز كومبيوتر (في فورت ميد) تتلقّى المعلومات وتفرزها وتحلّلها.

هل خضع سلوبودان ميلوسيفيتش لكلّ هذا؟أحد المسؤولين في مجلس الأمن القومي يجيب أنْ "نعم. كان لدينا عنه ملفٌّ أوسع من ملف صدّام حسين، فيه حواراته مع زوجته وأولاده ومعاونيه وكبار ضبّاط جيشه ورجال الشرطة، وجميعها تكشف ممارسته الحكم بقلقٍ ورعب. لكنَّ المحلَّل منها جزءٌ يسير، وما وصل منه الى مكتب الرئيس جزءٌ أصغر. لماذا؟ لأننا حتى 1998 لم نكن نعتبره عدوّاً أو خطِراً، بل مجرد رقم صعب لأية معادلة سياسية في تلك المنطقة. فكنا عندها كمن يكافئُ بميدالية الشجاعة رجلَ إطفاءٍ مهووساً بإشعال الحرائق".

في تلك الفترة، كانت وكالة الاستخبارات المركزية تضع تقارير متناقضة: عن أحد العاملين في ذلك الملف: "لم نكن نعرف تماماً ماذا نفعل. كانت الأحداث تتطوَّر بسرعة". وعن تقرير ثان (مطلع 1999) أنَّ "ميلوسيفيتش، إذ يواجَه باتفاق يقبل به كلِّه أو يرفضه كلِّهُ، قد يقرِّر مواجهة قصف "الأطلسي" ولن يتخلّى عن سيطرته على كوسوفو. فهو يعتقد أن الضربة عليه ستكون محدودة، مراهناً بأنَّ الحلفاء لن يشنّوا حرباً طويلة". وعن تقرير ثالث (1999/1/30) هذه الخلاصة المتناقضة الأخرى: "ميلوسيفيتش يرضى تماماً بما يُبعِد عنه القصف، ولن ينزلق في حربٍ يعرف أنه سيخسرها". وعن تقريرٍ رابعٍ، بعد أيّام: "ميلوسيفيتش لا يظنُّ أنَّ قوات "الأطلسي" جاهزةٌ لقصفه".

ذات يومٍ من تلك الفترة، أبلغ الأميركيون حلفاءهم الأوروبيين نبأً مفاجئاً: سفَر بعثةٍ عسكرية صربية الى بغداد لجمع المعلومات من العراقيين عن وسائل صَدّ الضربات الأميركية المنهالة من الأسلحة المتطوِّرة والصواريخ والطائرات السريّة وقنابل الليزر.

في نهاية كانون الثاني/يناير، اشتدَّ التوتّر في أجواء واشنطن وحلفائها الأوروبيين، وكثّفت مادلين أولبرايت اتصالاتها التلفونية بباريس وبون وروما، طالبةً من نظرائها دعمَ فكرةِ إنذارٍ شديد اللهجة لبلغراد، يهيئ لفرض نظامٍ سياسي في كوسوفو يرضى به القادة الألبان في الإقليم. وكان الردُّ واضحاً: يفضّل الأوروبيون استنفادَ جميع الحلول الديبلوماسية قبل التحرُّك العسكري.

في 1999/1/28 أعلن جاك شيراك وطوني بلير "الاستعداد التام لإرسال فرقٍ الى كوسوفو في إطار قوات الحلف الأطلسي. وفي حال فشل الاتفاق السياسي يصبح وارداً كلُّ خيارٍ آخر".

طلبت أولبرايت من الأوروبيين موافقتهم على أن يكون الجنرال ويسلي كلارك وحده من يقرر القصف الجوي في حال فشل المفاوضات، لكنَّ باريس وبون ولندن وروما ومدريد رفضت ذلك.

في 1999/2/6 وصل الى الرئيس الأميركي تقريرٌ جديدٌ من المخابرات الأميركية أنَّ "ميلوسيفيتش قد يرضى بنشر فرق قوات حلف شمال الأطلسي البرية، شرطَ إيجاد طريقةٍ يمكنه بها إبقاء كوسوفو في أحضان صربيا".

اتصلت مادلين أولبرايت بمدير التخطيط السياسي في وزارة الخارجية مارتن هالبرين، طالبةً إليه وضع عددٍ من "السيناريوات المفاجئة والمربكة"، فوضع نصاً من خمس صفحات عنوانه "مفاجآت" يستشرف "نتائج سيئة لقرار ألبان/كوسوفو النكث بالاتفاق، وقرار ميلوسيفيتش إطلاق ملاحقاتٍ سرية لاعتقالات فردية في كوسوفو، وتوتّراً عالياً في روسيا بسبب قصف بلغراد ينجم عنه قرار موسكو دعم الصرب عسكرياً".

راهن القادة الأوروبيون والأميركيون على "حربٍ قصيرة تُستخدَم فيها جميع الامكانات العسكرية الكفيلة بتحقيق انتصارٍ سريع". وفي واشنطن

دعمت وزارة الخارجية حلَّ استخدام القوة، لكنّ البنتاغون رفض هذا الحل، وسرى في أوساط الضباط الأميركيين نادرةٌ تقول: "ما الفرق بين البنتاغون و"*جوراسيك بارك*"؟ الجواب: البنتاغون حديقةٌ تسكنها الديناصورات، بينما "*الجوراسيك بارك*" ليس سوى... فيلمٍ سينمائي".

الفصل التاسع

يشغل وليم كوهين مكتباً واسعاً تطلّ جميع نوافذه على نهر بوتوماك، ويجلس خلف مكتب خشبي مهيب كان مكتبَ الجنرال بيرشنغ في الحرب العالمية الأولى.

والبنتاغون (في ضاحية من واشنطن) لا ينحصر فقط بمبنى هائل ذي أشكالٍ مغايرة، وبممراتٍ تبلغ 26 كلم، ويعمل فيه 30 ألف موظّف، بل هو مؤسسة ضخمة (يسميها البعض "شركة البنتاغون") ميزانيتها وحدها تعادل كل ميزانية فرنسا (تصل حتى 300 مليار دولار)، وهي استخدمت حتى اليوم نحو خمسة ملايين موظف بينهم مليونان من العسكريين. فالحضور العسكري الأميركي موجود في عشرين ولاية داخلية، وثلاثة وعشرين بلداً من العالم. ويتعامل البنتاغون مع مؤسساتٍ كبرى للصناعة والطيران (بوينغ، جنرال إلكتريك، جنرال موتورز، لوكهيد، آي.بي.إم،...) تنشَدُّ إليه لأنه زبونٌ مُغْرٍ يدفع دائماً ثمن التجهيزات والقطع ولو كان ثمنها أحياناً مرتفعاً جداً.

غير أن هذا الواقع الهائل، يخفي وراءه ضعفاً هائلاً لأنّ الجيش الأميركي، كما حدده أحد الخبراء، "شبح منتفخ يمشي بتثاقُلِ رجلٍ بدين"، إذ يخضع تحرُّكُهُ لروتين بيروقراطي جعل *"وول ستريت جورنال"* تقول إن "البنتاغون من بقايا العصر الصناعي"، وتدخلاته في العراق والصومال وهاييتي والبوسنة "كشفت كم يحتاج الى عملية ترميم". وهو في أساس تنظيمه من عشرة أقسام حربية، وكان ضباط شباب طالبوا بتقسيمه الى 25 وحدة حربية متحركة تضم كلٌّ منها 5000 عنصر، من أجل تلبية حاجات مرحلة "ما بعد الحرب الباردة"، فيسهُل إيفاد فرقٍ سريعة الى الخارج في الحالات الطارئة. لكن مطالبتهم لم تلقَ صدى".

في هذا السياق، كان تحريك مصفحاتٍ ثقيلة (واحدتُها من 70 طناً) الى كوسوفو، يتطلب عدة أشهر. من هنا، كما يذكر أحد كبار المسؤولين في البنتاغون، "كان العراق مسرحَ عملياتٍ مثالياً، لأنّ فيه بنيةً تحتية ومرفأً، لذا أمكن فيه نشر نصف مليون عنصر تساندهم أسلحة ثقيلة. وهذا غير متوفر في كوسوفو حيثُ إرسال 40 ألف عنصر مع عتادهم يستوجب إنزال 20 ألف منهم في ألبانيا وإيداع الباقين في مقدونيا وربما في هنغاريا، وهي طريقة بطيئة ومعقّدة لعدم وجود مرفإٍ وباحات إنزال. فحتى في أسوإ عملياتنا الاستيهامية، لم نواجه كابوساً لوجستياً كما في كوسوفو".

انصاع وليم كوهين لتحفظات الهرمية العسكرية. فإنما - كما يقول عنه أحد المراقبين المقربين - "جيء به الى هذا المنصب كي يحمي المؤسسة لا كي يعرِّضها للنقد. لذا هو دوماً يمتدح العسكريين ويتودد الى الكونغرس محافظاً على الوضع الحالي كما هو، منطلقاً من منطق بسيط وساخر معاً: لماذا يتورط في إصلاحاتٍ جذرية تستغرق سنواتٍ لتغيير نظام حالي متّبع منذ عقود وما زال فاعلاً؟".

قبيل إعلان الحرب في يوغوسلافيا (1991) كان وزير خارجية اللوكسمبورغ صرّح: "دقّت ساعة أوروبا". غير أن أحداث السنوات اللاحقة أثبتت بطلان ذاك القول. ففي الأزمة البوسنية كانت أوروبا حاضرة إنما عاجزة، قدَّمت تحت مظلة الأمم المتحدة جيوشاً ظلت بلا تحرك وعرضةً للإذلال، الى أن أوجدَ جاك شيراك "قوة التدخل السريع". والواقع أن النتيجة السياسية للأزمة البوسنية كانت ثمرة عمل ديبلوماسي هندسته الإدارة الأميركية فيما بقي الأوروبيون (خلال مباحثات دايتون) مهمَّشين وثانويين.

قبل مباحثات دايتون كان هولبروك، في كتابه، تحفّظ على نجاحها: "إنها امتحانُ بهلوانٍ يسير في الهواء على سلك، ولا شبكة تحته. ثمة عمل

كثير يجب تحقيقه قبل الغوص في مبدإ كل شيء أو لا شيء، ويجب اختيار المكان بدقّة وتحديد الأهداف بدقّة، وعلى البلد المضيف وحده أن يدير المناقشات، وهذا خطر عليه لأن مصداقيته تكون في الميزان، وفرص الفشل كبيرة. أما إذا توفرت الشروط جميعها، فيمكن أن تحقق مباحثات دايتون نجاحاً باهراً".

قرر الأوروبيون حازمين أن يتولوا ملف كوسوفو الديبلوماسي، وحدّدوا قصر رامبويّيه لعقد اللقاء التالي تحت إشراف الفرنسيين والبريطانيين. وفي 1999/1/30 (بعد اجتماع لمجلس "الحلف" في بروكسيل دام ثماني ساعات) تم تكليف خافيير سولانا (أمين عام "الحلف") بفرض عقوبات عسكرية إذا لم يمتثل فرقاء النزاع في كوسوفو للجدول الزمني الموضوع. كما تم الاتفاق على اختصار مدة الاستشارة بين الحلفاء قبل إطلاق الضربات الجوية ضد الأهداف الصربية أو ضد جيش تحرير كوسوفو. ودَعَمَ مجلسُ "الحلف" خطةً وضعها وزراء الخارجية الستة (خلال اجتماعهم في لندن عشية ذاك اللقاء) للتوصُّل الى اتفاق مبدئي يكون تنفيذه جاهزاً عند ساعة الصفر.

تلك الساعات الثماني في بروكسيل كانت صاخبة، خاصة بين الفرنسيين والأميركيين. ففيما كانت واشنطن تدافع عن استقلالية "الحلف" المطلقة في إدارة الأزمة، كانت باريس ترى أن ينحصر دور المنظمة الأطلسية بـ"إدارة المشروع" وتطبيق قرارات الهيئات الدولية.

ويقول خبيرٌ حضر الاجتماع أنَّ "النقاش لم يكن دلالياً، لأن انضواء الأوروبيين وراء قرارات المنظمة الأطلسية، يعني وقوفهم خلف القوة العسكرية الأميركية. كان جميع المشاركين يعرفون ذلك إنما كانوا يحاولون إنقاذ ماء الوجه".

في ذاك اليوم نفسه (1999/1/30) وخلال انعقاد الاجتماع في بروكسيل، طار روبن كوك (وزير الخارجية البريطاني) الى بلغراد فبريستينا ليُبلغ سلوبودان ميلوسيفيتش وقادة ألبان كوسوفو "ضرورة" حضورهم اجتماع رامبوييّه في 6 شباط/فبراير. وكان كوك يعرف أنّ تلك لم تكن "دعوةً لطيفة". لذلك اضطرَّ أنَّ يفصِّل للرئيس الصربي ما يمكن أن تضمّه المباحثات المقبلة، وبينها إعطاء الفريقَين (الصربي والكوسوفي) سبعة أيامٍ للاتفاق على "نظام حكم ذاتي" للإقليم، مع إمكان تمديدها الى أسبوعٍ آخر. فكان جواب ميلوسيفيتش للوزير البريطاني: "لطالما طالبنا بحوار سياسي مباشر مع ممثلي الهيئات القومية في كوسوفو، فبلادنا ملتزمةٌ دائماً بوضع نظامٍ سلمي". ولدى سؤال كوك: "أتأتي شخصياً الى رامبوييّه"؟ أجاب ميلوسيفيتش: "تُعْلِمكم حكومتي بذلك في الوقت المناسب بعد اجتماع البرلمان".

في 3 شباط/فبراير حدَّد "الأطلسي" عدّة مخطَّطاتٍ للتدخل العسكري في كوسوفو، أقربها الى التنفيذ (في حال نجاح اجتماع رامبوييّه) نشْرُ 000 36 عنصر، بينهم 2000 الى 4000 أميركي، 000 8 بريطاني، 000 6 فرنسي، 000 3 ألماني، ويتم تقسيم كوسوفو أربعة قطاعات تُشرف على كلٍّ منها وحدة دولية.

مساء السبت 1999/2/6 افتُتِح مؤتمر رامبوييّه في صالة القصر الكبرى (متأخّراً ساعاتٍ عن التوقيت الأصلي، لأن الطائرة الرسمية الفرنسية، المفترَض أن تُقِلّ من بريستينا صباحاً أعضاء البعثة الألبانية، تأخّرت ساعاتٍ بسبب ادعاء بلغراد انتهاء صلاحية جوازات سفر ثلاثة مندوبين ألبان). وفيما جلس ممثّلو دول "الحلف" على مقاعد وثيرة من طراز لويس السادس عشر، جلس أعضاء البعثات الصربية والألبانية على كَرَاسٍ عادية. بدأ جاك شيراك بالكلام مذكّراً بأن هذا المكان شهِد المصالحة الفرنسية/الألمانية التي

قادها ديغول وإديناور. وأضاف كما مخاطباً أقطاب القضية: "أمامكم مبادئُ لنظام الحكم الذاتي. يعود إليكم أمرُ تحديد بنودها وإحيائها حتى يتمكّن سكّان الإقليم داخل حدوده الحالية أن يعيشوا بسلام ضمن احترام شخصهم وحقوقهم، أياً يكن أصلهم". وأمام الألبان المتأثرين، والصرب الهادئين، أضاف: "لن يسمح أحدٌ بعد اليوم باستمرار أزمةٍ تطيح مبادئ الكرامة الإنسانية، كما لن نقبل أن تهدّد دورةُ العنف تدريجاً جنوب أوروبا".

لم يذهب ميلوسيفيتش الى اجتماع باريس، ولاحقاً ساعد غيابُه على توضيح بعض الأحداث. وكان المفاوضون الصرب باسمه منصاعين له كلّياً، بينما من الجهة الكوسوفية، كان أمام المعتدل ابرهيم روغوفا مفاوضون راديكاليون بينهم خمسةُ ممثلين لجيش تحرير كوسوفو.

كان هدف المؤتمر بلوغ اتفاقٍ مؤقّت لثلاث سنوات يضمن الحكم الذاتي لإقليم كوسوفو. ويقرُّ أحد مهندسي هذا الاتفاق (السفير الأميركي في مقدونيا كريستوفر هيل) بأنه كان يتجنّب استخدام كلمتَي "متفائل" و"البلقان" في الجملة نفسها.

في اليوم التالي استؤنفت المفاوضات، وجلس الصرب والكوسوفيون في غرفٍ منفصلة لأنَّ ممثلي بلغراد رفضوا الجلوس وجهاً لوجه مع "ممثّلي المنظمة الإرهابية المسماة جيش تحرير كوسوفو". فكان وسطاء دول "الحلف" ينقلون المعلومات بين غرفةٍ وأخرى.

مهلة الأسبوع المقرَّرة لمؤتمر رامبوّييه امتدَّت حتى الثالث والعشرين من ذاك الشباط/فبراير، ولكن... بدون أيّة نتيجة. فالصرب أصرّوا منذ البداية على أن يوقّع الفريقان مبدأين كانا ضمن الدعوة الى اجتماع رامبوّييه، أحدهما يضمن سيادة جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية كلياً على جميع أراضيها الحالية. وهذا يعني حكماً إلغاء اتفاق الحكم الذاتي لكوسوفو

في نهاية ثلاث سنوات. وفي 11 شباط/فبراير اتهم روبن كوك بعثة بلغراد بعرقلة المفاوضات.

من هنا لا تصحّ المقابلة بين مؤتمر دايتون ومؤتمر رامبويّيه. فالبوسنة لم تكن تشكّل لميلوسيفيتش ولا للصرب ما يشكّله لهم إقليم كوسوفو. وكان رئيس البعثة الألمانية في دايتون نقل بعض حواره مع ميلوسيفيتش: "لفتَ انتباهه الى نوايا المجلس الأوروبي حول الحكم الذاتي في كوسوفو. كانت هذه هي النقطة الوحيدة التي أثارته، فانفعل في وجهي: "كوسوفو مسألة داخلية، لا تعني سوى بلادي". ورفض نهائياً كلّ محاولةٍ لتدويل الأزمة".

ويلفتُ في هذا السياق تحليلُ هنري كيسنجر لأسباب بلوغ مؤتمر رامبويّيه الطريق المسدود: "ما عقّد أزمةَ كوسوفو: مؤتمرٌ جاء بمشروع اتفاقٍ محضّرٍ سلفاً في وزاراتٍ أجنبية ليُفرَضَ على فرقائه تحت التهديد بالقصفِ الجوي. فجيش تحرير كوسوفو رفضه في البدء كوسيلةٍ لفرض قوة "الحلف" على صربيا، ما دفع ميلوسيفيتش الى زيادة ضغطه على جيش تحرير كوسوفو قبل أن تنهال عليها القنابل. والصرب رفضوه لأنهم وجدوا في نصه مقدّمة لاستقلال كوسوفو، وفي وجود جيوش "الحلف" نوعاً من الاحتلال الخارجي. وكانت صربيا في الماضي قاومت الأمبراطوريتَين العثمانية والنمساوية، وقاومت هتلر وستالين. لذلك كان مستحيلاً أن تقبل بحلٍّ كهذا ولو هُدّدت بالقصف حتى الاستسلام. أما جيش تحرير كوسوفو فكان هدفه "استقلال" الإقليم لا "الحكم الذاتي"، ولذا رأى في مؤتمر رامبويّيه وسيلة تكتيكية لإطلاق قوات "الحلف" هولها الجوي على الصرب". وبالفعل، كان الصرب شاعرين بـ"مؤامرة" في مؤتمر رامبويّيه الذي بدا لهم فخاً حاكه لهم الأميركيون ويستعد الأوروبيون لإطباقه عليهم. وبهذا المعنى كان ميلوسيفيتش أعلن لكثيرين من زواره: "لا أؤمن بحياد

الأميركيين لأن هدفهم السري هو فرضُ استقلال إقليم كوسوفو وفصله عن يوغوسلافيا".

وقد تكون إشارةٌ صدرت عن وزارة الخارجية الأميركية، ساعدت على ترسيخ هذا الشعور لديه، منها قول أحد مساعدي مادلين أولبرايت: "كان ثمن إنقاذ مؤتمر رامبوبّيه أن نتقرَّب أكثر فأكثر من ألبان كوسوفو".

في 1999/2/14 وصلت مادلين أولبرايت الى باريس لحلحلة المفاوضات، فاجتمعت طويلاً بمندوبي الوفدين. وفي اجتماعها مع الصرب (كانوا يصغون إليها ببرودة) قالت لهم إن والدها كان سفير تشيكوسلوفاكيا في يوغوسلافيا وإنها في طفولتها تعلّمت أغنيات صربية لا تزال تذكرها جيّداً. وفي نهاية الاجتماع، قالت لهم إن الألبان مستعدون لتوقيع الاتفاق، محذّرةً إياهم من عرقلته. وعن *"نيوزويك"*، أنَّ "موقف الإدارة الأميركية اندسَّ بذلك في فراش ميليشيا مسلّحة، لم يكن في الواقع يعشقها"، بل كانت واشنطن، قبل عامٍ من ذلك، تعتبرها "منظمة إرهابية".

رسمياً كان النصُّ المقدّم في مؤتمر رامبوبّيه يضمن بقاء كوسوفو في حضن الاتحاد اليوغوسلافي. وفعلياً، كانت ملامح الاستقلال ترتسم عند نهاية السنوات الثلاث المقترحة لإنجاز الدستور النهائي للإقليم، وكان الأميركان، بدعمهم فكرة الحكم الذاتي في دستور الإقليم، يرسلون إشارات واضحة الى المبعوثين الألبان بأنَّ الاستقلال أمرٌ ناجز.

ويرى الخبير الستراتيجي إدوار لوتوارك أنَّ مؤتمر رامبوبّيه كان يرمي الى "استقلال الأمر الواقع" خلف ستار "الحكم الذاتي" ولو في حضن جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية. وعن الـ*"واشنطن بوست"* أنَّ "إدارة كلينتون وضعت خياراً تكتيكياً حاسماً: تحقيق اتفاق مع ألبان كوسوفو وحدهم، ثمَّ مع ميلوسيفيتش وحده".

في مؤتمر رامبوييّه بذلت مادلين أولبرايت جهداً كبيراً لإقناع مندوبي جيش تحرير كوسوفو الموجودين ضمن البعثة الألبانية، حتى أنها جمعتهم بالقائد الأعلى لقوات "الحلف" الجنرال ويسلي كلارك. على أن ألبان كوسوفو، برفضهم في اللحظة الأخيرة توقيعَ الاتفاق، زادوا من هول التهديد الذي ينتظر ميلوسيفيتش. من هنا قول أولبرايت: "إذا فشلت المفاوضات بسبب مسؤولية أحد الفريقَين، لن يحدُث القصف على صربيا". وعادت الى واشنطن تقول لمعاونيها: "هذه أكثر المفاوضات إرهاقاً خضتها في حياتي". وأردف أحد المقرّبين منها: "في نهاية تلك المفاوضات، أصبحت بشحوب وجهها تشبه ممثلين في مسرح كابوكي يَطْلون وجوههم بالطحين الأبيض".

في سماء البلقان كانت تتلبّد غيومٌ أخرى. ففي 1999/2/13 استُدْعيَ الى واشنطن اثنان من كبار مسؤولي وكالة الاستخبارات الأميركية كانا أُرسلا الى مؤتمر رامبوييّه بغطاء ديبلوماسي ضمن البعثة الأميركية. وكان الموقف العسكري يتطوّر ميدانياً بسرعة: قواتٌ صربية تعبر حدود كوسوفو آتيةً من مدينتَي نيي وِلِسْكوفا، مصحوبةً بقوافل من مصفّحات "م84" (متطوِّرة جداً لدى الجيش اليوغوسلافي) كما كانت تتكدَّس مستوعبات البنزين في مستودعاتٍ سرّية.

عشية إطلاق الضربات الجوية، كان 000 27 عنصر يرابطون في كوسوفو، و000 15 ينتظرون على الحدود مزوّدين بنحو 150 قطعة من المدفعية الثقيلة. وعن محلِّلٍ في البنتاغون: "حين جاءتنا بالأقمار الصناعية صور هذه الاستعدادات الضخمة، أيقنّا أنها تمهيدٌ لهجوم صاعق على جيش تحرير كوسوفو. وكان يقلقنا سؤال: لماذا كلُّ هذا الحشد من المدرّعات لضرب عصاباتٍ ميليشاوية لا تتجاوز 000 9 عنصر؟ ولم ندرك يومها ما كان مخبّأً...".

كانت عملية "حدوة الحصان" على أُهْبة الإطلاق. وقد يكون هذا سبباً جعل ميلوسيفيتش، الغارق في تحضيراته العسكرية، يتغيَّب عن مؤتمر رامبوييه. وهو استغلّ المؤتمر ستارةً من دخان حوّلت عنه انتباه الغربيين وحجبت أهدافه الحقيقية. فالعملية كانت ترمي الى نشر الجيوش الصربية بشكل حدوة حصان انطلاقاً من شمال كوسوفو، لتهجير السكان الألبان جنوباً وشرقاً وغرباً.

وفي بلغراد، توالى أمام الرئيس اليوغوسلافي مبعوثون كثيرون كانوا يسمعون جواباً واحداً: "يستحيل القبول بنشر قوات "الأطلسي"...".

الفصل العاشر

عن أحد معاوني الرئيس كلينتون: "صحيح أننا كنا في شباط المدلهِمّ الماطر، لكنه في واشنطن كان شهراً ساطعاً ومشعاً بالنسبة للرئيس الذي، في الثاني عشر منه، أعلن براءَتَهُ مجلسُ الشيوخ منهياً بذلك خطرَ عزله". لذلك بدا باسماً ومتفائلاً حتى حول مصير كوسوفو الذي ظلَّ يعتقد بإمكان تجنُّب الحرب فيه. بعد أيام، قام بزيارةٍ رسمية الى المكسيك. وبين المدعوين على متن طائرة البوينغ الرئيسية، كان السيناتور جوزف بيدِن الذي نقلت عنه الـ"*نيويورك تايمز*" قوله: "كنتُ غارقاً في قراءة كتاب عن تاريخ البلقان لباربرا جيلافيتش، حين انتبه إليَّ الرئيس وقال لي: "أعطِنيه. أريد أن أقرأه". فأجبتُه بشبه مزاح: "ولماذا لا تشتري نسخة منه؟".

في 1999/3/5 كان الرئيس كلينتون يستقبل في مكتبه البيضَوي (بحضور ساندي برغر) رئيس الحكومة الإيطالي ماسيمو داليما الذي ذُهِلَ لسماعه الرئيس الأميركي يقول: "قَبِلَ ميلوسيفيتش بمعظم الشروط. أيامٌ قليلة من القصف عليه كافيةٌ لإرضاخه كلياً". وحين أجاب داليما: "وماذا إذا فشل القصف، وازداد اللاجئون الى البلدان المجاورة، وبلغ المهجَّرون 400 000؟"، ارتبك كلينتون والتفت الى برغر الذي أجاب مرتبكاً هو الآخر: "تُواصل قوات الأطلسي القصف".

عن أحد مستشاري الرئيس أنه "في مجالسه الخاصة، كان يرى أزمة كوسوفو مجرَّد عمليةٍ مع رجال شرطة، كالتي كنا خضناها في هاييتي. وكان يقول: "بعد أيامٍ من سيطرة قوات "الأطلسي" سيتصالح الصرب والألبان. وسترَون"...".

كان في هذا التأكيد جهلٌ مذهلٌ لتاريخ البلقان، وتفاؤلٌ لا يستند الى شيء عند الرئيس الأميركي الذي (خلال اجتماعه في 1999/2/1 مع كبار مسؤولي السياسة الأميركية الخارجية) قال: "من تقارير الاستخبارات الأميركية فهمتُ أنَّ إقليم كوسوفو أهمُّ لدى ميلوسيفيتش من البوسنة، وربما لهذا هو مستعدٌّ لتلقّي الجولة الأولى من الضربات الجوية. آمل ألاّ نصل الى القصف، ولكنه قد يكون ضرورياً".

في 1999/3/15، استؤنفت المباحثات بين الصرب والألبان في باريس (جادة كْليبر) لكنّها توقّفت بعد ثلاثة أيام لأن الصرب رفضوا مجدداً توقيع اتفاقية الحكم الذاتي في كوسوفو، بينما رضي بها الألبان آملين من توقيعهم أن يثيروا الحلفاء لإطلاق ضرباتهم الجوية.

في واشنطن، داخل "غرفة الأوضاع"، كان بيل كلينتون مجتمعاً الى مادلين أولبرايت ووليم كوهين وساندي برغر والجنرال شِلتون حين تلقّى اتصالاً من السفير كريستوفر هيل يُعلمه فيه بأنَّ الألبان وقّعوا على اتفاق الثمانين صفحة لكنَّ الصرب رفضوه. فسأل الرئيس: "وما هي، بعدُ، حظوظ التوصل الى اتفاق؟" وجاءه جواب الديبلوماسي الأميركي: "0,00٪، سيِّدي الرئيس".

وعن أحد المشاركين في الاجتماع: "رانَ في القاعة صمتٌ ثقيل: خاض ميلوسيفيتش 4 حروبٍ في البلقان خلال 8 سنوات، وكلٌّ واحدةٍ أشدُّ شراسةً من الأخرى، ولم يكن لدينا أيُّ خَيارٍ فاعلٍ لإيقافه".

اتصل جورج تُونِيه (مدير الاستخبارات الأميركية) طالباً اجتماعاً عاجلاً بالرئيس، فحُدِّدَ له نهار 1999/3/17 وأعلن خلاله للرئيس أنَّ "وحدات الجيش الصربي، مدعومةً بوحدات وزارة الداخلية ووحدات

أنصار الجيش، انطلقت في هجوم واسع على كوسوفو، وهي عملية ضخمة تبدو مخططاً لها من قبل، وتَستخدمُ عتاداً عسكرياً ضخماً". وعرَض تُونيه معلومات لديه تشير الى أنّ "الصرب واعونَ أخطاء صدّام حُسين خلال حرب الخليج، وعوض أن يواجهوا مباشرةً ضربات "الأطلسي" الجوية سيسعَوْن الى تجنُّبِ دمارها ما أمكن". وعن المعلومات نفسها أيضاً أنَّ "قادة قوات الشرطة الصربية الخاصة، تجنُّباً للقصف، نقلوا مراكز عملياتهم الى طوابق تحت الأرض في فنادق بلغراد".

اتصل الرئيس كلينتون بوليم كوهين في البنتاغون مستفسراً عن الفاعلية الحقيقية للضربات الجوية، فرفع إليه كوهين بعد ساعتَين مذكرةً تنقل عن الخبراء العسكريين أنْ يصعب تحديد الفاعلية الدقيقة للقصف الجوي بسبب طبيعة الأرض الصعبة في صربيا وكوسوفو، ويصعب تقدير الوقت المطلوب لذلك، كما يصعب التكهُّن الدقيق بنظام الدفاع الجوي اليوغوسلافي الضالع في المعركة.

في 1999/3/20 كان 1375 من المراقبين الدوليين (التابعين لـ"منظمة الأمن والتعاون الأوروبية") يغادرون كوسوفو عابرين حدود مقدونيا بسياراتهم البرتقالية الخاصة، بعدما تيقّنوا من نهاية مهمّتهم عند فشل مفاوضات السلام في باريس.

وفيما كانت تزداد تفاقُماً هجوماتٌ صربية ضدَّ المدنيين في كوسوفو، كان الإقليم يخلو من مراقبين أجانب ومن قوات تدخُّلٍ ولو رمزية. وشكّل هذا تناقضاً آخر من الغرب الذي كان يدّعي الاستعداد لدخول الحرب في كوسوفو كي يحمي شعباً معزولاً يواجه قدره.

المراقبون الغربيون (تسللوا هاربين خارجَ الإقليم خوف أن يأخذهم الصرب رهائن) صادفوا في طريق انسحابهم أرتالاً هائلةً من المواكب العسكرية. ويذكر أحد المراقبين أنَّ "الجنود كانوا يحيّوننا بإلفة منشرحين من مغادرتنا التي ستتيح لهم التحرّك على هواهم بدون مراقبين". وكان خبراء أوروبيون كثيرون تحفظوا على قرار سحب المراقبين، لأنه "إشارة سيّئة" تغري ميلوسيفيتش بتكثيف هجومه.

أخذ بيل كلينتون يجري اتصالاتٍ طويلة، غالباً مع طوني بلير، وأحياناً مع جاك شيراك وغرهارد شلودر. وعن أحد معاونيه: "كنا نقترب من لحظة الحقيقة، في سباقٍ تباطؤيٍّ بين الرئيس وحلفائنا الأوروبيين. لم يكن أحدٌ مقتنعاً بعدُ أنَّ القصف بات حتمياً، بل أنَّ التهديد باستعمال القوة سيكون أجدى. ما هذا الضلال!". وفي أحد الاجتماعات كان ساندي برغر أعلن: "لا يمكننا الانتقال من فشل مباحثات السلام مباشرةً الى القصف".

رفضت أولبرايت اقتراح كلينتون بأن يذهب شخصياً الى بلغراد لمقابلة ميلوسيفيتش، لأنها متأكدةٌ من فشل هذه الوساطة. وكانت ترى في هولبروك منافساً لها (وهي تعير اهتماماً لصورتها فتتجنّب كلَّ ما يشوّهها)، فاقترحته (وكان لا يزال ينتظر موافقة الكونغرس على تسميته سفيراً أميركياً لدى الأمم المتحدة)، للذهاب الى بلغراد مكان الرئيس كلينتون.

أقلع هولبروك من واشنطن ليل الأحد 1999/3/21 في "مهمّة الفرصة الأخيرة" كما سماها كلينتون. وصل بروكسيل صباح الاثنين الى اجتماعٍ في المقرّ العام لـ"الأطلسي" (مع وزراء خارجية فرنسا وألمانيا وبريطانيا). كان

الأميركيون قدّموا مخططاً يستشرف تزايداً تدريجياً في حجم القصف على صربيا، وهو أمرٌ يقوّي موقف هولبروك في التقائه ميلوسيفيتش.

وفيما كانت طائرات القصف تهيّئُ محرّكاتها، وصل الموفد الأميركي الى بلغراد يرافقه غريغ شولت (الاختصاصي بشؤون البلقان في مجلس الأمن القومي) والجنرال جورج كاسي (من كبار ضباط البنتاغون).

في هذه الأثناء كان الرئيس اليوغوسلافي يستقبل ثلاثة أقطاب من مؤتمر باريس الذي آلَ الى الفشل: السفير الأميركي في مقدونيا كريستوفر هيل، السفير النمساوي في يوغوسلافيا وولفانغ بيتريتش، والديبلوماسي الروسي بوريس مايولسكي، لبحث الشق السياسي من مشروع الاتفاق حول كوسوفو. ولكن الاجتماع كان تسعين دقيقة من حوار الطرشان. فعن السفير النمساوي أنَّ "ميلوسيفيتش يريدُ أن يصدِّق ما يرغب هو في تصديقه. لم يكن مستعداً للدخول في حوارٍ بنّاء يبحث عن بدائل وما يمكن أن ينجم عنها. و لم يُشِرْ طوال الحديث الى حلٍّ يمكن أن يشكّل بداية تقدُّم".

في بداية اللقاء ، ظنّ المفاوضون الثلاثة أنَّ الزعيم اليوغوسلافي لم يكن واعياً محور المفاوضات الحقيقي. وحين بدأ يتكلّم على ألبان كوسوفو ناعتاً إياهم بـ"إرهابيين" و"انفصاليين" بادره السفير النمساوي: "سيِّدي الرئيس، منذ توقيع الألبان على الاتفاق لم تعد تستطيع أن تسمّيهم إلاّ استقلاليين ينادون بالحكم الذاتي".

لدى عودة ريتشارد هولبروك من يومَي المباحثات مع ميلوسيفيتش في قصر بيلي دْفور الرئاسيّ، وصف الجوّ بأنه "غير معقول". وفي نهاية

المفاوضات قال أحد معاوني هولبروك: "خيَّرْنا ميلوسيفيتش بين نشر قوات "الأطلسي" أو مواجهة قنابل "الأطلسي". فاختار القنابل".

كان ميلوسيفيتش يحيِّر محاوريه بلهجته الهادئة الحيادية، وبإثارته المتكررة ماضيَ الشعب الصربي ونضالَه الدائم للحفاظ على استقلاله. وحين كان ضيوفُهُ يعيدونَهُ الى الوقائع المأساوية في كوسوفو، ينكرها بعنادٍ شرس: "هذا المسمّى هجوماً في كوسوفو هو اختراع إعلام غربي يضلّله جيش تحرير كوسوفو. الجيش اليوغوسلافي لا يقوم بأيّة عملية هجومية، وليس على الأرض سوى تحرّكات رجال الأمن ضدّ المجرمين، ذلك أننا نستأصل جميع الجذور المجرمة. على أي حال، أنتم الأميركيون كنتم في رامبوييه جالسين الى جانب الألبان في لقاءات التفاوض".

بعد 4 ساعاتٍ مباحثات عقيمة، اقترح هولبروك على ميلوسيفيتش أن يلتقيه صباح اليوم التالي. وفي ذاك اللقاء (1999/3/23) سأل هولبروك: "هل عندك فكرة واضحة ودقيقة عمّا سيحدث حين سأغادر بوابة هذا القصر الرئاسي؟" فأجاب ميلوسيفيتش بلهجةٍ حياديةٍ جداً وباردةٍ جداً:

– نعم. ستقصفوننا.

– صحيح.

– يمكنكم أن تفعلوا ذلك، فأنتم قوة عظمى.

ووقف الرجلان، فسأل الزعيم الصربي مُحاورَه الأميركي:

– هل نعود فنلتقي يوماً؟

– هذا يتوقّف على تصرفّاتكم.

كان الجنرال كاسي في ذلك الاجتماع فصَّل لقائد الجيش اليوغوسلافي أسماء وحداته الرئيسية وأماكن وجودها، مردفاً: "نعرف تماماً أين سنضربكم، وإذا بدأنا القصف ستكون أنت مسؤولاً عن تدمير خمسين عاماً من الاستقلال العسكري اليوغوسلافي".

وعن هولبروك أنَّ "ميلوسيفيتش هو الذي اختار إرادياً إطلاق القصف على بلاده. ولو انني لمحتُ لديه بارقةً صغيرة من الاستعداد للمساومة لما كنتُ توجّهت الى المطار مُغادراً. لكن موقفه المتصلب من أعمال العنف كان السبب الأوَّل لطلبي من الرئيس كلينتون والوزيرة أولبرايت وضع حدٍّ للمباحثات. لم نعد قادرين على السماح بمطّ المفاوضات في حين قوات الأمن لديه تغتصب القرى وتدمِّرها، وإلا لأصبحت المفاوضات ستارةً من الدخان تؤخّر تدخّل قوات حلف شمال الأطلسي".

بعد ساعاتٍ من مغادرة البعثة الأميركية، فَصَلَ ميلوسيميتش قائد قوات الأمن العسكري الجنرال ألكسندر ديمتريفيتش وعيَّن مكانه الجنرال غيزا فاركاس.

وفي حين كان هولبروك يغادر بلغراد، كان رئيس الوزراء الروسي يفغيني بريماكوف يطير الى واشنطن في زيارةٍ رسمية من ثلاثة أيام يقابل خلالها الرئيس كلينتون ونائبه غور والوزيرة أولبرايت والمسؤولين في صندوق النقد الدولي. وإذا بهذه الزيارة المبرمجة قبل وقتٍ طويل تتحوَّل الى سوء تفاهم ديبلوماسيٍّ مدهش. وكان مستشارو الرئيس الأميركي اقترحوا عليه إرجاء هذه الزيارة، لكنه رفض لأنه اعتبر زيارة بريماكوف حجّةً إيجابية لتأخير إطلاق القصف الجوي الى حين مغادرة الزعيم الروسي، متيحاً بذلك وقتاً أطول لحلٍّ ديبلوماسي. على أنَّ ذلك التفكير لم يكن ذكياً إلاّ على

الورق فقط، لأن الواقع أطاحه بسرعةٍ حين وصلت من كوسوفو أنباء سيئة عن تدهور الوضع على الأرض بشكلٍ مأساوي.

كان اللواء المتحرِّك الخامس عشر (التابع للجيش اليوغوسلافي الثالث) واللواء المدرَّع 211 يراقبان الطرق وسكك الحديد بين بريستينا وبوديافو، فيما أعنف المعارك تدور في الشمال الشرقي للإقليم، وتحترق قرًى ويهجَّر سكان وتحتجز القواتُ الصربية الرجالَ، وتتشابه هذه الأعمال من قرية الى قرية، فيصدر الأمر الى السكان بمغادرة منازلهم، ثمَّ يستولي الجنود على أموالهم وحتى على بطاقات هوياتهم.

عند هذا الحد تدخَّل نائب الرئيس الأميركي ليؤكِّد عدم جواز المماطلة أكثر في إعطاء الأوامر بالقصف قائلاً: "إنَّ مصداقية "الأطلسي" على المحكّ. أرسلنا الى ميلوسيفيتش أربعة إنذارات. لم نعد نستطيع تقديم مراعاة روسيا على مصالح "الحلف"، وإلاّ نكون قدّمنا لميلوسيفيتش أسبوعاً إضافياً لينظِّف كوسوفو تماماً من الألبان". اقتنع كلينتون بهذا الرأي وأضاف: "ولكن، تتولّى أنت إبلاغ ضيفك".

في التاسعة والنصف صباح 1999/3/23 اتصل آل غور بريماكوف. كانت الساعة الثانية والنصف بعد الظهر في مطار شانون الإيرلندي حيث كانت طائرة إيوشين حطَّت لتتزوَّد بالوقود، وعلى متنها رئيس الوزراء الروسي وأعضاء بعثته. وأصغى بريماكوف بانتباه الى غور يشرح له ضياع آخر فرصةٍ للحصول من ميلوسيفيتش على حلٍّ تفاوضي. فكان جواب بريماكوف: "سنقلع بعد دقائق. نبحث في الأمر لدى وصولي الى واشنطن. شكراً على اتصالك".

أقلعت الطائرة الروسية من شانون في التاسعة والدقيقة الخمسين. وكان بريماكوف يلعب ورقةً شخصية مهمة، ساعياً من لقاءات الأيام الثلاثة (مع القادة الأميركيين) ومن مفاوضاته مع مسؤولي صندوق النقد الدولي (لتحريك أرصدةٍ جديدة) الى تقوية موقفه لدى الرأي العام الروسي. فهو "متواضعٌ خادع وباطني صادق" (كما حدَّده أحد أقرب معاونيه) ويضمر أن يكون الخصم الأقوى لبوريس يلتسين.

فيما كانت طائرة الإيوشين تحلّق فوق "الأطلسي" كانت الأحداث تتدافع في البيت الأبيض: ساندي برغر يدخل على بيل كلينتون (وحده في المكتب البيضَوي) ليعلن له فشل مهمة هولبروك، ويضيف متوتّراً: "نحن جاهزون، إلاّ إذا كان قرارك غير ذلك". وعندها قال كلينتون (أخيراً!) بصوتٍ عريض: "لا. اتخذتُ قراري: أضربوا".

خرج برغر مسرعاً من المكتب البيضَوي ليقتحم مكتب قائد الجيش الجنرال شلتون معلناً له أمر الرئيس ببدء القصف على صربيا. وكان قائد الجيش الأميركي على اتصالٍ دائم ببروكسيل مع المقرّ العام لقوات "الأطلسي" التي بعد خمس دقائق بالضبط كان قائدها الأعلى الجنرال ويسلي كلارك يتلقّى الضوء الأخضر بالقصف.

هكذا، بعد خمسين عاماً على إنشائها لتقف في وجه تهديد الاجتياح السوفياتي، تدخّلت قوات حلف شمال الأطلسي للمرة الأولى (منذ إنشائها) في عملية حربية. وفي الواحدة ظهراً (توقيت واشنطن) اتصل نائب الرئيس الأميركي آل غور مجدداً برئيس الوزراء الروسي الذي كانت طائرته تقترب من الشواطئ الأميركية قائلاً:

- يفغيني، يا صديقي، وقع ما كان في الحسبان. فشِلَ اللقاء في بلغراد، و لم يَعُدْ بُدٌّ من الانتقال الى المرحلة التالية.

أجاب بريماكوف متضايقاً ومرتبكاً: "تعلمون أننا ضدّ هذا الحل بشكلٍ قاطع. لا أظنُّ أن القصف سيفرض الاستقرار في كوسوفو، بل العكس هو الذي سيحدث". وعن أحد معاوني غور أن "بريماكوف اكتشف فجأةً فداحة الطريق المسدود. كان استعدّ ملياً لهذه الزيارة الى واشنطن، وها هو يكتشف أنه سيكون في موقفٍ حرجٍ جداً، إذ يعارض علناً منذ أشهرٍ استخدام القوة ضدَّ صربيا. وكنا مراراً أفهمناه بشكلٍ لبقٍ جداً حقيقة الوضع، من دون أن نوحي إليه بتأجيل زيارته".

تصرَّف بريماكوف بسرعة: أقفل الهاتف وأعطى أوامره الى القبطان بأن يستدير فوراً ويعود الى موسكو. حاول الاتصال ببوريس يلتسين لكن بيل كلينتون كان سبقه واتصل به ليعلمه.

قليلةٌ هي النقاط المشتركة بين بيل كلينتون وويسلي كلارك. منها أن هذا الأخير (54 سنة) من أركنصا (ولاية الرئيس)، ومثله خرّيج معهد رود (أوكسفورد). وهو جُرِحَ عام 1970 أربع مرات في فيتنام، وصرَّح لاحقاً في سياق حديثه عن المظاهرات المناهضة لتلك الحرب: "تعلمتُ كثيراً من تأثير الرأي العام على تغيير الخطط الحربية". الى هذا، هو ذكيٌّ وهادئ حتى البرودة، ميالٌ الى التنظير، مأخوذٌ بأفكاره الخاصة ويشمئز ممن لا يقاسمه إيّاها، غير شعبي في صفوف الجيش الأميركي، يعرف الدقَّ على الأبواب المناسبة في الوقت المناسب، ويعرف كيف يقيم علاقاتٍ مثمرة مع أصحاب القرار، وكيف يتأقلم بنجاحٍ مع المتطلبات السياسية. عيّنه الرئيس كلينتون (تموز/يوليو 1997) قائداً لقوات حلف شمال الأطلسي و لم يكن يملك أية

خبرةٍ عن قيادة العمليات على المسرح الأوروبي، فإذا به في بلجيكا على رأس قوات حلف شمال الأطلسي، إضافةً الى 100 ألف جندي أميركي موجودين في أوروبا. وكان عليه أن يعمل تحت إشراف تسعة عشر عضواً في "الحلف" يفرض عليه وجودهم سلوكاً خاصاً وطيّعاً يؤدي به أحياناً الى المساومة.

لقاءاته المتعدِّدة مع سلوبودان ميلوسيفيتش حوَّلته خصماً عنيداً للزعيم الصربي، وجعلته يقول: "القوة هي اللغة الوحيدة الذي يفهمها هذا الرجل". ولذا ظلَّ أسابيع طويلة يتهيأ جيداً للقصف، ويُبدي في حلقاته الخاصةِ امتعاضاً من تردُّد المسؤولين الأميركيين والأوروبيين، متنبّهاً ألاّ يُظهرَ علناً هذا الامتعاض.

الفصل الحادي عشر

هجوم "قوات حلف شمال الأطلسي" لم يأتِ في ظروف مؤاتية:

1) لم يكن في تصرُّف قوات "الأطلسي"، لقصف الأهداف الثابتة، سوى 400 طائرة، يعود أكثر من نصفها للولايات المتحدة، معظمها رابضٌ في إنكلترا وإيطاليا وعلى متن حاملات طائرات. بينما في حرب الخليج أُرسلَ نحو 2700 طائرة الى العراق.

2) رفْضُ قادة "الأطلسي" تكراراً نشر القوات البرية تركَ الساحة مفتوحةً أمام القوات الصربية وحرَمَ الغربيين من وسيلة ضغط فاعلة. ولو ان قواتِ "الأطلسي" (كما رأى الخبراء) انتشرت على طول حدود كوسوفو، لكانت أعاقت زحف الجيش اليوغوسلافي على كوسوفو، وحالت دون ارتكابه المجازر والتهجير.

3) عن أحد معاوني كلينتون أنه أمر بـ"تخفيف القصف الى حدِّه الأدنى، تجنُّباً لإيقاع ضحايا مدنيين". وحين عرض عليه ويسلي كلارك "قصفاً كثيفاً وسريعاً لشوارع بلغراد، بدا قلقاً ومتوتراً".

المرحلة الأولى من القصف (1999/3/24) تناولت نحو 60 هدفاً عسكرياً، معظمها بطارياتُ دفاع مضادةٌ للطيران ومدارج إقلاع طائرات.

بعد يومين، اكتشف الخبراء أن كلَّ ذاك القصف في كوسوفو لم يؤثِّر على فعالية دفاع قوات ميلوسيفيتش التي كانت تواصل قصف قرى خلف الحدود في ألبانيا.

وفيما اعترف ساندي برغر: "هذا الأمر يقلقنا كثيراً"، بدا الرئيس الأميركي متوتراً ومنهَكاً، ويمضي نهاراته على الهاتف متباحثاً مع قادة "الأطلسي"، وخاصة شيراك وشرودر وبلير "من أجل تطمينهم وطمأنته

معاً". وكان، حسب أحد المقربين منه، ينهي حديثه مع كل واحد منهم بقوله: "...وإذا استجدّ أيٌّ طارئ، لا تتأخر في الاتصال بي ليلاً ونهاراً".

عن ديبلوماسيٌ أوروبي شهد مختلف مراحل الأزمة، أن "هذه الحرب اندلعت بصورة غريبة. فرغم تصريحات قادتنا، كانت حرباً لم يكن أحد جاهزاً لحسمها. فلا قوات برية، ولا قصف كثيف، ولا استعداد لدفع ثمنها السياسي"، إلا في ما يتعلق بطوني بلير الذي كان يؤمنُ أنْ "في مواجهة البربرية، من واجب البلدان المتمدنة الدفاع عن قيمها في كل مكان، ولو باستخدام القوّة إذا لزم الأمر". وكان هذا التصريح يعكس تجاذبات مريرة في صفوف حزب العمال.

في ألمانيا، كان غيرهارد شرودر يصرِّح قلِقاً في جلساته الخاصة: "إذا القصف لم يردع ميلوسيفيتش، لن يعودَ من حلٍّ سوى إرسال القوات البرية، وهذا ما نتجنّبه".

لم يحدث أنْ تابع المسؤولون السياسيون تحضيراتِ الحرب بدقةٍ ومتابعةٍ حثيثة مثلما فعلوا في حرب كوسوفو. وعن خبير عسكري: "كانوا تسعة عشر متحلّقين باستمرار فوق كَتِفَي ويسلي كلارك. وكان معاونو القائد العام لقوات "الأطلسي" يختارون الهدف ويرسلونه الى البنتاغون، عبر شبكة تحمل رمز "ج2ت" أُوجِدَت خصيصاً لتقويم خصائص الهدف التقنية: أهميته العسكرية، نقطته الأهم، والسلاح الأفضل لقصفه. وكان المخططون في الوقت نفسه يقدِّرون المخاطر على الطيار وعلى السكان المدنيين: هل الهدفُ في منطقة محميّة، وهل حوله سكان مدنيون؟ ثم تُرسَلُ نتائج التقديرات والتقويمات الى فريق قانونيين في البنتاغون، والى مركز "الأطلسي" لإعادة التأكد من الهدف المختار.

وكان سؤالٌ دائمٌ يواجه المسؤولين: هل يمكننا تبرير قصف هذا الهدف؟ والمقصود بـ"التبرير" أن يكون من الأهداف الاقتصادية والمناطق الصناعية. وأخيراً تُرسَلُ اللائحة النهائية الى الرئيس الأميركي والى القادة الحلفاء يعيدون النظر فيها ملياً بعد استشارة مندوبيهم الدائمين في بروكسيل.

مساءَ 1999/4/27 كانت طائرةُ استطلاع "إي سي 130" تابعة لـ"الأطلسي" تقوم بمهمّة فوق الأدرياتيكي، وترصد اتصالات الطيارين خلال تنفيذ طلعاتهم، حين سمعت إشارة استغاثة من طائرة أصيبت، اكتَشفَت أنها من طراز "إف 117" غير المفترض نظرياً أن تصاب وهي من أغلى الطائرات على الإطلاق. وصل الخبر الى ساندي برغر في واشنطن (الثالثة والنصف بعد الظهر) فأبلغ فوراً الرئيس كلينتون الذي أقلقه الأمر لأن الأحداث بدأت تتسارع عليه في غير المتوقّع، وضربات القصف لم تكن تحقّقُ الغايات المنتظرة، فيما الجيش الصربي، بمعنوياتٍ مرتفعة، يواصل عملياته، وتنفجر في اليونان ومقدونيا مظاهراتٌ معاديةٌ للتدخل العسكري.

بعد عشرين دقيقة من اختفاء الطائرة، انطلقت عملياتٌ في محاولةٍ لإنقاذ الطيّار المصاب. وفي المكتب البيضَوي، كان برغر وكوهين وشلتون ينتظرون متوتّرين قلقين. في التاسعة والنصف، رنَّ الهاتف فسارع برغر الى أخذه، وظلّ ثوانيَ صامتاً، ثمَّ ارتسمت على ثغره ابتسامة أعلن بعدها للرئيس كلينتون أن الطيار سليمٌ، أنقذَتْهُ فرقة كوموندوس متمركزة في توزلا (البوسنة) ونقلَتْهُ بالهليكوبتر خارج الأراضي اليوغوسلافية. وهنا أجاب كلينتون مبتسماً: "أنا بحاجة الى الراحة، سأذهب غداً لألعب الغولف". ذُعر الموجودون وقال أحدهم: "لا يمكن أن تظهر في الإعلام تلعب الغولف بينما طيّارونا يخاطرون بحياتهم فوق البلقان". وأصروا عليه أن يبقى في البيت الأبيض، لكنه هزَّ برأسه قائلاً: "أنا في حاجة لاستعادة صفائي".

وبالفعل، في اليوم التالي طار الى منتجع كامب دايفد. لكنه، قبل صعوده الى الهليكوبتر المتوقفة على العشب الأخضر في باحة البيت الأبيض، عقد اجتماعاً ثنائياً مع ساندي برغر، فاجتماعاً آخرَ لساعةٍ مع وليم كوهين ومادلين أولبرايت والجنرال شلتون وجورج تُونِيه لدراسة الأهداف العسكرية المخطَّط قصفُها في الساعات اللاحقة. ثمَّ سأل كلينتون معاونيه: "أرأيتم على الشاشة مَشاهِدَ اللاجئين هرباً من كوسوفو؟"، وعرض لهم حديثه في الليلة الفائتة مع طوني بلير الذي انتقل هو الآخَر الى منزل الراحة الريفي المخصص لرؤساء الوزارة الإنكليز. وكانت خلاصة الزعيمَين واحدة: لم يحقِّق القصف أهدافه بعد. وختم كلينتون: "مع ذلك يجب أن نواصل". فهزّ معاونوه برؤوسهم و لم يفهموا إن كان يريد اقتراح أمرٍ جديد كتكثيف الضربات مثلاً، لكنه لم يَبْدُ مستعداً بعدُ لزيادة الضغط العسكري ولو انَّ ويسلي كلارك كان أرسل إليه لائحةً مفصّلة بالأهداف الصناعية التي يشرفُ عليها (أو يملكها) ميلوسيفيتش وأسرته وحلفاؤه. وكانت نظرية كلارك أن الضرب بقسوة على الطاقة الاقتصادية والمالية العائدة لسيِّد بلغراد قد تُضعف سلطته لدى الأقربين مما يزعزعه ويدفعه الى الاستسلام. وعن أحد المسؤولين في "الأطلسي": "طالما هو ما زال في السلطة، لن يهتمَّ لمعرفة عدد جنوده القتلى في كوسوفو تحت القنابل. لكن هذه القنابل إذا دمَّرت ممتلكاته فسوف يتحرّك ويهتمّ".

وكانت التقديرات التي رفعها الى ويسلي كلارك معاونوه تعاوُناً عن تقارير أجهزة الاستخبارات الأميركية كشفت أن الرئيس اليوغوسلافي عبر السنوات نسج في طول البلاد وعرضها شبكة صناعية وتجارية هائلة ومنتجة، إذ لم ينجُ قطاعٌ اقتصادي مُهم في يوغوسلافيا من سيطرته المباشرة أو من سيطرة عملائه المباشرين. فإبنه ماركو يملك إذاعة ومحل أسطوانات وشبكة إنترنت تحت الاسم التجاري "مادونا". وكان في نيّته إنشاء مدينة مَلاهٍ

تحت اسم "بامبي لاند"، وله أسهمٌ في شركات لاستيراد السجائر. وشقيقته ماريا تمتلك إذاعةً وشبكةً تلفزيونية. ورئيس الوزراء الصربي ميركو مريانوفيتش يدير شركة كبرى لإنتاج الغاز، بينما مساعده نائب رئيس الوزراء نيكولا ساينوفيتش هو أحد كبار مالكي شركة لاستغلال المناجم. أما غوفاشيفيتش (وزير البناء) فيدير إحدى أكبر الشركات للأشغال العامة والمقاولات، وزيفوتا غوزيتش (وزير الطاقة والمناجم) يدير مصنعاً كبيراً للسجاير، وميلان بيكو (وزير سابق) مدير مصنعٍ للأسلحة والسيارات، ورئيس البرلمان الصربي دراغان توميتش مدير إحدى كبرى شركات الطاقة في البلاد. وعن بعض الإحصاءات أن عائلة ميلوسيفيتش تملك فيلاّتٍ فخمةً في اليونان ولها عدة حساباتٍ في مصارف سويسرا، قسمٌ منها حوّلته ميريانا زوجة ميلوسيفيتش الى الخارج وتحديداً الى مصرفَين فرنسيَين. والحاصل أن أحد كبار مدراء بنك قبرص (بوركا فيرشيتش) نسيبٌ للرئيس الصربي وكان وسيطاً لاستقبال تحويلات القادة الصرب والاهتمام بمضاعفة ثرواتهم.

هكذا نجد بأن القطاعات اليوغوسلافية في الطاقة والزراعة والاستيراد والتصدير والتسلّح كانت منشآتٍ حيويةً بين قبضة ميلوسيفيتش والمقرّبين منه. ولعلّ أغزرها إنتاجاً قطاعُ التسلّح وتحديداً إنتاج ذخيرة بإشراف فريق يرئسه الجنرال يوفان تشيكوفيتش، يؤمّن تصديرُها أرباحاً دوريةً وباهظةً بالعملة الصعبة.

عن أحد المقرَّبين من الرئيس كلينتون أنّ "ضرب هذه الأهداف يغريه لكنه لم يشأ أن تتخذ الحرب في نظر الرأي العام طابع تصفية الحساب مع ميلوسيفيتش. غير أنَّ تفكيره هذا لم يلبث أن تغيّر بعد أقل من خمسة أيام". وبالفعل كان مفاجئاً فشلُ المرحلة الأولى من القصف، ولخصّها مسؤولٌ أوروبي بقوله: "إذا كان التصميم هو مواصلة قصف ميلوسيفيتش حتى إرغامه على توقيع اتفاق رامبوييه، فعلينا تَوَقُّعُ قصفه سنوات عديدة".

وكان مسؤولو "الأطلسي" في جلساتهم الخاصة لا يعترفون إلاّ بخطإٍ واحد في التقدير عبّر عنه أحدهم بقوله: "كان علينا منذ البدء أن نهيئ طائراتٍ أكثر. لكن أيّ واحدٍ من بلدان "الحلف" لم يكن مستعداً لِمَدِّنا، ولا تصوَّرَ أحد أنَّ ميلوسيفيتش سيندفع في تهجيرٍ مكثّفٍ بهذه الوحشية لألبان كوسوفو".

والواقع أن آلاف اللاجئين كانوا يعبرون يومياً حدود ألبانيا ومقدونيا ومونتينِغرو، وهي دول فقيرةٌ وضعيفةٌ وعلى طريق النمو. وعن خبير في البنتاغون: "فيما كنتُ أُتابع مشاهد هذا التهجير الكثيف، قال لي أحدهم إن عشرة أيامٍ بعدُ من التهجير بهذه الكثافة، ويكون ميلوسيفيتش أفرغ كلَّ كوسوفو".

كانت قوات "الأطلسي" تخوض حرباً باهظة الكلفة مضعضعة التركيز. ومع أنَّ 90٪ من الأسلحة المستعمَلة لقصف كوسوفو كانت بالغة الدقّة "بأعلى نسبة مئوية في الإصابات عرَفَتها حرب جوية" بحسب ويسلي كلارك (لم تبلغ نسبة الإصابات في حرب الخليج أكثر من 9٪)، صدر في الـ"*نيويورك تايمز*" مقال ساخرٌ جاء فيه: "ماذا ينفع استخدام قنبلةٍ متطوِّرة كلّفَت مليون دولار حين يكون الهدف المصاب مجرَّدَ... شاحنة؟". وعلى هذا التساؤل علّق ويسلي كلارك: "نحن نقوم بحربٍ مدمِّرة لا بحربٍ قصيرة وعيننا على دفتر الشيكات".

لكنّ الفاعلية لم تكن مطابقةً للنظرية. فالوقت المستغرَق في كوسوفو استنفد القصف. والأقمار الصناعية التجسسية (القادرة أن تكشف أهدافاً على الأرض بدقة عشرة سنتمترات) كانت هي الأخرى مضلِّلةً. ففي حين كانت أنظمة الاتصال التابعة للقوات الصربية جزءاً من أوائل الأهداف المقصودة، كان رجال الفرق الميدانية الصربية (المولّجة ميدانياً على الأرض

تنسيق هـذه العملياتٰ) يستخدمون أنظمةً بدائية معظمُها أجهزة اتصال عادية. وكانت صواريخهم مخبّأةً في أعماق الوديان ودبّاباتهم مموّهـةً في الساحات تجرُّها مطفَأَةَ المحركات (لتغيير أماكنها) أحصنـةٌ أو ثيرانٌ، خوفَ تشغيلُ محرّكاتها يولّدُ حرارةً تلتقطها الأقمار الصناعية المعادية. وكان الجنود يتنقّلون بثيابٍ مدنية حيناً، أو يمتزجون بمواكب اللاجئين الهاربين حيناً آخر. هكذا كان "الأطلسي" يخوض حرباً غيرَ التي يخوضها الصرب.

كانت شبكةٌ من نحو خمسين قمراً صناعياً عسكرياً، في المدار الخارجي حول الكرة الأرضية، مخصَّصةً لمراقبة صربيا وكوسوفو باستمرار. وكان قمر المراقبة الصناعي الفرنسي "هيليوس" يبثُّ صوره الى مركز عمليات عسكريةٍ مشتركة موجودٍ في وزارة الدفاع (باريس) وهو صالةٌ من 200 متر مربع مليئة بأجهزة الكومبيوتر. هكذا بدا أنَّ هذه الحرب (بالنسبة للولايات المتحدة) متغيرة كلياً عما كان اعتمده القائد العام للقوات المسلّحة خلال حرب الخليج الجنرال باول بمبدأين بسيطَين لَفَتَا الأوساط العسكرية والطبقة السياسية عندئذ:

1- لا تدخل أميركا في نزاع إلاّ إذا أمّنت له جميع الوسائل العسكرية لكسبه.

2- لا تطلق الولايات المتحدة أبداً شرارة حربٍ إن لم تكن تعرف مسبقاً كيف تطفئها.

والواقع أنَّ هذين المبدأين تبخّرا في كوسوفو، ويتذكّر البعض في واشنطن ملاحظة ساخرة وجهّتها مادلين أولبرايت الى كولين باول عام 1993: "ماذا تنفع جميع فرقنا العسكرية، يا جنرال، إن لم نستعملها؟".

في موسكو، وفيما كان بوريس يلتسين يغطُّ في نومٍ عميقٍ متوجّعاً من القرحة في معدته، أيقظه هاتفٌ من يفغيني بريماكوف يعلمه بأن بلغراد

تقبل بوساطةٍ روسية أبلغهُ إياها بوريسلاف ميلوسيفيتش (شقيق سلوبودان) سفيرُ يوغوسلافيا في روسيا والوسيط بين أوساط رجال أعمال روس لبعض العمليات التجارية المثمرة. وكان يلتسين كاشفاً نية بريماكوف بأن يستعيد المبادرة (بعد فشل زيارته الى واشنطن). ومع ذلك وافق على رحلة رئيس وزرائه الى بلغراد، إنما استبقها بإرسال ثلاثة موفدين روس (بينهم رئيس الوزراء السابق غيدار الذي كان في مراهقته قريباً جداً من ميلوسيفيتش). وصادف أنّ هولبروك (وكان في بودابست أثناء رحلة عمل) التقى الموفدين الثلاثة وهم يستعدّون للسفر ما إلاّ ليرضوا رغبة يلتسين ويحرجوا بريماكوف.

بعد زيارة الثلاثة، لحق بهم رئيس الوزراء على رأس بعثة تضمُّ وزيرَي الدفاع والخارجية ومسؤولين من جهاز المخابرات السوفياتي السابق (الـ"كي. جي. بي."، وكان بريماكوف ذات فترة على رأسه).

كان ميلوسيفيتش منشرحاً لرؤيته الزوّار يتتالَون لديه. وبكلّ هدوءٍ ومرح يعلن لهم فشل الضربات الجوية وعجزها عن إضعاف القدرة العسكرية الصربية. ويركز مسروراً على معرفته المسبقة بفشل "الأطلسي" في الاتفاق على إرسال قوات برية، ويقول: "لن يطأ جنديٌّ واحدٌ من قوات "الأطلسي" الأرضَ اليوغوسلافية في السنوات المئة المقبلة، وربما في ألف سنة".

بعد ست ساعات من المباحثات، لم يحصل بريماكوف من الزعيم الصربي إلا على وعدٍ مبهم: "بعد تَوَقُّف جميع الضربات الجوية كلياً، أنا مستعدٌّ للبحث في حلٍّ سياسي لجميع المسائل".

طار بريماكوف الى بون (كانت ألمانيا رئيسة المجلس الأوروبي لستة أشهر) فاستقبله المستشار غيرهارد شرودر الذي أذهله تفاؤل بريماكوف،

لإيمانه بأن اقتراحات بلغراد "غير مقبولة" ولا يمكن قطعاً أن تشكّل "قاعدةً لحلٍ سياسي".

وفيما راح بريماكوف المرتبك من الموقف يؤكّد أن ميلوسيفيتش ضَمَن له "استعداده لتقليص قواته في كوسوفو بعد وقف القصف كلياً"، أكّد كذلك أنّ "ميلوسيفيتش يتمنى إجراء مفاوضات مباشرة مع ألبان كوسوفو، وهو مستعدٌ لتهيئة عودة لجميع اللاجئين المسالمين".

ولم يتمكن بريماكوف من إجابة شرودر عن تفاصيل أكثر لطبيعة "المفاوضات" المقترحة ولا عن اختيار المفاوضين ولا عن المعنى الدقيق لعبارة "اللاجئين المسالمين". وعن موظّف كبير في وزارة الخارجية الأميركية أن "الروس فشلوا بشكل فاضح، ولم يبقَ لهم كي يقنّعوا فشلهم إلاّ تكثيف انتقاداتهم ضدّنا".

وبالفعل، عمد وزير الخارجية الروسي إيغور إيفانوف الى اتهام قوات "الأطلسي" بالتخطيط سراً لإرسال فرقٍ عسكرية الى كوسوفو وتنسيق الضربات الجوية بالتعاون السري مع قواتٍ "جيش تحرير كوسوفو" على الأرض (ولم تكن تلك التهمة باطلة تماماً).

ويضيف إيفانوف في اتهامه بأن المراقبين الأوروبيين (الذين غادروا كوسوفو الى مقدونيا قُبَيْل بدء القصف) تركوا وراءهم داخل الإقليم عملاء كانوا يصوّبون ضربات طائرات "الأطلسي" بإعطاء الإرشادات الدقيقة عن الأهداف الصربية.

في 1999/3/30، توصَّل الرئيس كلينتون ورؤساء دول وحكومات "الحلف" الى نتيجةٍ واحدة "سيئة ومريرة": الضربات الجوية لم توقف أبداً هجومات القوات الصربية في كوسوفو، ولا هي أوقعت أضراراً فادحة في الآلة العسكرية الصربية.

يومها اتصل طوني بلير بالرئيس الأميركي كي يعلن له: "الخطة الوحيدة هي تكثيف الضربات الجوية". وفي بروكسيل (مركز "الأطلسي") كان هذا أيضاً رأي ويسلي كلارك: أن يتواصل القصف 24/24 ساعة.

عند المساء، اجتمع ممثلو بلدان "الحلف" واتخذوا قراراً بتكثيف الضربات الجوية. وكان سفراء "الحلف" التسعة عشرة التقَوا في قاعة الاجتماعات ونقل أحدهم أنهم "اقتنعوا بأن الحرب هذه المرة لا بدّ أن تبدأ".

لم يحضر ويسلي كلارك ذاك الاجتماع لكنه كان أعد لائحةً بأهداف جديدة يرغب في قصفها "فوراً وسريعاً": الجسور، الوزارات، مركز الحزب الحاكم، محطات التلفزيون، مصانع الأسلحة، مستودعات النفط. وجاءت الموافقة بالإجماع من جميع السفراء، مع التحفظ الوحيد: عدم البدء أولاً بقصف محطة التلفزيون.

كانت تلك بداية المرحلة الثانية من الحرب.

في ذلك الاجتماع، تمّ كذلك عرض خياراتٍ أُخرى، بينها نشر القوات البرّية. ولكن، كما قال أمين عام قوات "الحلف" خافيير سولانا: "تأخّرنا بإرسال القوات البرّية، حتى ولو انّ دولاً من "الحلف" قرّرت ذلك الآن. لسنا مستعدين لعملية كهذه إلاّ في حال اتفاق سلام يوقّع عليه الصرب. عدا ذلك، العملية شبه مستحيلة لأنها تستغرق وقتاً طويلاً".

وكان هذا المنطق هو الذي يتبنّاه ويلهج به قادة البنتاغون الذين لم ينسوا بأنهم، لكي يؤمّنوا نقل الجنود الى المعركة خلال حرب الخليج، اضطرّوا الى استخدام 57 طائرة ما سوى لإنزال الفيلَق الرابع والعشرين المؤلّف من 5100 آلية بين شاحناتٍ ومدرّعاتٍ ثقيلة (70 طون) و70 طائرة

هليكوبتر تمَّ شحنها جميعاً على متن سفنٍ ضخمة لَفَظَتْها في المرافئ السعودية.

بالنسبة الى حرب كوسوفو كانت ألبانيا هي القاعدة اللوجستية الرئيسية لعملية كهذه، لكنها أكثر بلدان أوروبا فقراً: طرقاتها ضيّقة ومحفّرة، ليس لديها تجهيزاتٌ لإفراغ السفن، لا يتّسع مطارها الصغير لأكثر من طائرتَين صغيرتَين، وتأهيل البنية التحتية فيها يتطلب جهداً مضنياً في مدة قدّرها الخبراء بأربعة أشهر.

كان يهُمّ مادلين أولبرايت أن تنتهي الحرب قبل 23 نيسان/أبريل (ذكرى اليوبيل الخمسيني لتأسيس قوات حلف شمال الأطلسي). وكانت الاحتفالات ستجري في واشنطن ويرغب كبار المسؤولين الأميركيين بإجرائها في جوٍّ بهيج.

كان خافيير سولانا يبدي تفاؤلاً "رسمياً" لكنه في مجالسه الخاصة يقول: "هذه مشكلةٌ لم تنشأ في 24 ساعة، ولن تُحَلَّ في 24 ساعة".

عن أحد المراقبين أن "قوات الأطلسي لم تكن مهيأة للحرب ولا للاتصالات. ولم تكن جهود الناطق باسمها (البريطاني جامي شيا) كافيةً لإخفاء ذاك النقص، والخبراء العسكريون يرفضون إعطاء العدد الدقيق للطلعات الحربية وعدد الصواريخ المطلَقَة وعدد القنابل المسقَطَة والنسب التي تمَّ فيها نجاح ضرب الأهداف، بينما قدَّمت أوساط البنتاغون ووزارة الدفاع البريطانية معلوماتٍ أكثر دقة: في تسعة أيام قامت الطائرات الحليفة بتنفيذ 2700 طلعة علماً أن رداءة الطقس أرغمت مسؤولي الحلف العسكريين على إلغاء 50٪ من ضرباتهم المقررة، بينما في حرب الخليج كان إيقاع الطلعات الجوية بمعدّل 3000 طلعة جوية كلَّ يوم".

هذه النتائج السيئة ولدت مناخاً سيئاً وإشاعاتٍ سيئة، منها لغطٌ عن اكتشاف جاسوسٍ في مقرّ قوات الحلف الأطلسي يسرِّب معلوماتٍ للصرب عن الأهداف المنوي قصفها. واستناداً الى هذه المقولة، انتشرت معلومة مقلقة: مبنَيَا وزارة الداخلية اللذان قصفتهما صواريخ كروز كانا فارغَين من الناس، بينما في الليلة السابقة كانا يعجّان بالناس، ونوافذهما مضاءة. فهل بلغ الصرب نبأُ أنهما سيُقصفان؟

الجواب عن ذلك بسيطٌ جداً: قبل ثلاثة أيامٍ من قصف المبنيين كانت *"الواشنطن بوست"* نشرت مقالاً نقلاً عن مصدر موثوق يؤكّد أن الرئيس كلينتون أعطى موافقته على قصف وزارة الداخلية. وقد يكون هذا المقال أتاح لسلطات بلغراد اتخاذ إجراءاتها الضرورية.

مع ذلك ظهرت مؤشّرات أخرى لا تخلو من الارتياب: أُخليت مبانٍ عديدة قبيل انهمار قنابل أو صواريخ "الحلف" عليها. وقام عددٌ من أعضاء "الحلف" بإثارة موضوع توقيف الضابط الفرنسي بونيل الذي، وهو من أركان "الحلف"، اتُّهم بتسريب المعلومات الى الصرب.

كما صدرت إشاعةٌ أخرى في الجريدة اليومية البريطانية *"الدايلي تلغراف"* أن فرنسا حُيِّدت عن الاجتماعات السرية لأن واشنطن شكّت في أن تكون باريس تسرِّب الى بلغراد مخططات "الحلف" العسكرية. لكنّ فداحة الاتهام ساهمت بتجريد الإشاعة من مضمونها.

واتضح، بحسب ديبلوماسي في بروكسيل، أن "المعلومة خاطئة بل مركّبة. فباريس تشارك في جميع القرارات، وشيراك يتغنّى دائماً بعلاقاته الوثقى الممتازة مع كلينتون، لكن للأميركيين وسائلهم في التحفظ على حميمياتهم والانزواء في غرفة منفردة ساعة يشاؤون. فشبكة الأوامر في حَرَم "الحلف" يسيطر عليها الأميركيون الذين يتمتعون بشبكة أخرى من الأوامر

غير الرسمية. وواشنطن تقاسم حلفاءها كلَّ ما يعنيهم، وتحفظ لنفسها كلَّ ما يعنيها، وقد يكون الذي يعنيها هو الأساسي".

كان وجود جاسوسٍ في حرم "الأطلسي" تبريراً مغرياً لكنه غير ثابت. فاتصالاتٌ هاتفية كثيرة في مقرّ "الحلف" لم تكن تجري على خطوطٍ محصّنة فكان الصرب يتنصتون عليها بسهولة، إضافةً الى أنَّ الروس كانت لهم أيضاً محطاتٌ تنصُّت يمكنها التقاط المعلومات من مركز "الأطلسي" وإرسالها الى بلغراد.

الفصل الثاني عشر

في 1999/4/9 وقف بوريس يلتسين أمام كاميرات التلفزيون، وبصوت متهدّج ونُطْقٍ بطيء، قال: "أُعلِن لمنظمة حلف شمال الأطلسي والأميركيين والألمان: لا تدفعونا الى القيام بعملية عسكرية قد تجرُّ حرباً في أوروبا، وربما حرباً عالمية. نحن ضد هذا الذي يجري".

مسؤول كبير علّق على ذلك بقوله: "ها هو الدب الروسي يلعق جراحه". ورأت واشنطن في هذا التصريح غيظ موسكو لتغطية عجزها. وعن مسؤول كبير في البنتاغون: "وجدَ الروس أنْ لا سيطرةَ لهم على مجريات الأزمة، وأنّ الصرب يستغلون الوساطة الروسية للإيغال أكثر في ممارستهم".

لكن اثنين كانا قلقَيْن على نتائج "خروج الروس من اللعبة": مادلين أولبرايت المنهمكة جداً، وكلينتون الذي تذكّر حوار الـ45 دقيقة على الهاتف مع يلتسين (حين أعلن له بدء الضربات الجوية) وكيف انفعل يومها الرئيس الروسي معتبراً القصف "اعتداءً أميركياً على البلقان".

كانت موسكو أرسلت سفينة محمّلة أجهزةَ تنصُّت، تتجسس على أسطول "الأطلسي" في البحر الأدرياتيكي، وأعلمَت السلطات التركية بعبور ثماني سفن أخرى مضيقَ البوسفور بين 12 و16 نيسان/أبريل آتيةً من البحر الأسود. وعن مسؤول أوروبي أن "موسكو لم تشأ أن تفعل أكثر، ولم تكن تستطيع أن تفعل أفضلَ".

بين جميع القادة الأوروبيين، ربما كان جاك شيراك الأكثرَ قلَقاً على الوضع، والأكثرَ مطالَبةً نظراءَه بإدخال موسكو في إعادة إطلاق الحلول الديبلوماسية.

وكانت باريس طلبت أن تساعد منظمةُ "الأطلسي" سكانَ كوسوفو المهجَّرين داخل بلادهم. غير أن هذا المُوجب الإنساني أغاظ مسؤولي "الأطلسي" العسكريين، والأميركيين خاصة، باعتبارهم المَطلَب نافراً لأن اهتمامهم كان كلّه مركّزاً على العمليات العسكرية الجارية.

الأربعاء 1999/4/7 سمع قائد وحدة أميركية في مقدونيا هذا النداء من جهازه اللاسلكي: "نحن في مواجهة مباشرة وخطرة، نقطتنا هي غْريد 675، وإننا محاصَرون". وانقطع الإرسال، فانطلقت فِرَقٌ فرنسية وإنكليزية وإيطالية للبحث عن الرجال الثلاثة وتحريرهم. ولكن المحاولة فشلت.

في اليوم التالي تلقى قائد فرقة البحث نداءً من رئيسه الجنرال كْرادوك (المتمركز في سكوبيا): "ألغوا المهمة. أوقفوا البحث. رأينا الثلاثة على شاشة الـ سي. إن.إن.".

صحيحٌ أنّ تهجير مئات آلاف السكان من كوسوفو كان يثير تعاطُف الأميركيين، لكنّ احتجاز بلغراد الجنودَ الثلاثة أثار سخط الأميركيين.

في خطاب ألقاه الرئيس كلينتون بُعَيد ذلك في فرجينيا قال إن "الولايات المتحدة تحمِّل ميلوسيفيتش وحكومته مسؤولية سلامة الجنود الثلاثة".

وفي استطلاعٍ للرأي العام صدر بعد يومين تبيّن أن 58٪ من الأميركيين (مقابل 53٪ قبلذاك) يؤيدون قرار الرئيس الأميركي بإرسال قوات أميركية في كنف قوات "الأطلسي".

بعد صدور هذا الاستطلاع، اتصل كلينتون بطوني بلير معلناً: "عند قرارنا البدء بالضربات الجوية كنا أمام ثلاثة خيارات: أن يسحب ميلوسيفيتش قواته من كوسوفو (وهذا ما تأكدنا من استحالة حدوثه)، فتح

صفحة جديدة من المفاوضات الديبلوماسية (وهذا ما لا أراه الآن واضحـاً)، أو قصف القوات الصربية لإضعافها وتقوية جيش تحرير كوسوفو".

في 1999/4/10 أوعز كلينتون الى وزرائه الرئيسـيين وكبـار معاونيـه بظهورهم في البرامج التلفزيونية، فظهر برغـر وكوهـين وأولـبرايت غـير مـرة على غير محطة في اليوم الواحد، يسـرّبون الى الـرأي العـام رسـالة مزدوجـة: إمكان تدهور الوضع أكثر، وتخطيط "الأطلسي" لمشاريع هجـوم بـري، مـع إبقاء هذين النقطتين "بمجرد احتمال" لأن "الهجوم الجـوي حاليـاً يحقـق جميـع أهدافه بنجاح".

الهدف من هذا التحـرُّك "الإعلامـي" كـان إعـادة الطابـة الى ملعـب "الأطلسي". و لم يتمالك كوهين من إعلانِ أن دول "الأطلسـي" لم تُثِرْ مـرةً موضوع إرسال قوات بريـة، لكنـه في حلقاتـه الخاصـة كـان يضيـف: "كنـا راغبين في دراسة نشر القوات البرية، لكن حلفاءنا كانوا دوماً يرتدعون".

عسـكرياً، وصلـت الولايـات المتحـدة الى الطريـق المسـدود. وعـن مسؤول كبـير في البنتـاغون: "التزمنـا بدخـول حربَـين دون أن تكـون لدينـا إمكانات متابعتهما. أرسلْنا الى كوسوفو طائراتٍ كنـا استعملناها في شمـالي العراق، و لم تَعُد لنـا حـاملات طـائرات أميركيـة في غربـي المحيـط الهـادئ".
وكانت قيادة السلاح الجوي تقدّر أن مؤونتها من صواريـخ كـروز تكفيها حتى العام 2002.

لكن الصواريخ التسعين المطْلَقة حتئذٍ ضد القوات الصربيـة أطـاحت ذاك التقدير واضطرت قيادة السلاح الجوي الأميركي أن تستعجل تحويل 92 صاروخاً نووياً الى صواريخ عادية، وأن تطلب زيادة في الميزانية لتحويل 230 صاروخاً آخر.

هذا الذعر اضطَر واشنطن، تنسيقاً مع لنـدن، الى التقـرُّب سـرياً مـن جيش تحرير كوسوفو، مـا دفـع وزيـر الخارجيـة البريطانيـة روبـن كـوك الى الاتصال عبر هاتف خليوي بأحد قادة تلـك المنظمـة (هاشـم تاتشـي) الـذي رسم له صورةً مرعبة للوضـع داخـل الإقليـم بـإخلاء آلاف السـكان قراهـم ولجوئهم الى الغابات في العراء أو الى القمم الثلجية المعرَّضـة لـلريح والموت. كانت تلك المعلومات كارثيّة، إنما لم يكن ممكناً التحقُّق من صحتها.

ميدانياً، كانت المعارك تشتد في غـرب كوسـوفو قـرب الحـدود مـع ألبانيا. ووَضُحَ للخبراء العسكريين أن الصرب يحـاولون قطـع جميـع خطـوط الامدادات على المنظمة الانفصالية (جيش تحرير كوسوفو). وكان عملاء في وكالة الاستخبارات الأميركية وأعضاء في مخابرات الجيـش جـاؤوا خصيصـاً من الولايات المتحدة الى ألبانيا واجتمعوا ثلاثاً بقياديين عسكريين من جيـش تحرير كوسـوفو، في مهمـةٍ سـريةٍ لم تكـن ضمـن الإطـار الرسمـي لنشـاطات "الأطلسي"، بل على العكس كانت بادرة أنكلو-أميركية سرية سعى البَلَدان الى اخفائها عن حلفائهما. وعن ديبلوماسي أوروبي: "خـلال الاجتماعـات في مقرّ "الأطلسي"، أو خلال المباحثات الثنائية، لم يكن الكلام يـتركّز علـى مصير جيش تحريـر كوسـوفو. وكـان البحـث في ضـرورة تسـليحه أو عـدم تسـليحه هامشياً كـالبحث في نشـر القـوات البريـة. وأظـنُّ أنّ الأمـيركيين والإنكليز كانوا يضلّلوننا بهذا الموقف".

كـانت الاجتماعـات المعقـودة بـين المخـابرات الأميركيـة ومخـابرات الجيش وقيادة جيش تحرير كوسوفو تتركز على تقديم الأسلحة لهذه المنظمة في جوٍّ إصرار قادتها على أنهم إذا تجهَّزوا عسكرياً وتسلّحوا جيِّـداً يُلحقـون أضراراً بالغة بالصرب. ويؤكّد مسؤولٌ في وزارة الخارجية الأميركية: "بادرة تسليح جيـش تحريـر كوسـوفو لم تفـاجئني. كنّـا مغتـاظين مـن هُـزالِ نتـائج الضربات الجوية، وتالياً نرحِّبُ بكلِّ ما يَفتح جبهةً جديدة ضدَّ الصرب. إنما

كان ضرورياً إخفاءُ البادرة لأننا قبل عام من ذلك كنا لا نـزال نعتبر رسمياً جيش تحرير كوسوفو منظمة إرهابية".

في نهاية تلك اللقاءات، وضـع المسـؤولون الأمـيركيون تقريـراً "معتدلاً" بأن الصـرب سـدَّدوا ضربات موجعة الى الفرق الانفصالية الـتي تفرَّقت وضَعُفَت حتى باتت عاجزةً عن المبادرة العسكرية. وكـان عـددٌ مـن المسؤولين الأميركيين شارك في عملياتٍ، شماليَّ كردستان، بعد سحق العراق عسكرياً، لإعادة تنظيم الأكراد وتجهيزهم لدعـم نضـالهم ضـدَّ بغـداد. وعـن هؤلاء المسؤولين أن "الأكراد حينئذٍ كانوا حلفاء محتمَلين أكثر مما هو جيـش تحرير كوسـوفو اليـوم". بنـاءً عليـه تقـرَّر فصـل خـبراء ومستشـارين إنكليز (تابعين للقوات الخاصة) وإرسالهم الى كوسوفو لإعادة تنظيم كوادر منظمـة جيش تحرير كوسوفو. غير أنَّ الأميركيين عارضوا تلك الفكرة، وقال عضـوٌ بارز في المخابرات الأميركية: "كنا بحاجـةٍ قصـوى الى حلفـاء علـى الأرض، ولم نجد أحداً مناسباً". فجيش تحرير كوسوفو كان يتحرّك أكثر مما يحـارب. ورئيس مونتينِغرو (ميلو جوكانوفيتش) المفترض أنه ديمقراطـي، أمضـى كـلَّ حياتـه السياسـية في ظـلّ ميلوسـيفيتش، وكـان عـام 1991 أيَّـد قصـف دوبروفنيك، واخترق الحظر الغربي واستورد بضائع محظورة.

وسقطت المعارضة الديمقراطية في صربيا، فكان الطريق المسدود.

في 1999/4/14 أظهرت الاحصاءات أن 6000 طلعة جويـة أصـابت 150 هدفاً، وكان على قـوّات "الأطلسـي"، كـي تصيـب هدفـاً واحـداً، أن تطلق أكثر من 35 طائرة بين قاصفةٍ وداعمـة. وطلـب ويسلي كـلارك مـن البنتاغون 300 طائرة إضافية، فيما باريس قوَّت عتادها بأربع طائرات مـيراج "2000د" رفعت عدد طائراتها المشاركة الى 73، وأصبحت الأسطول الجوي الثاني بعد الولايات المتحدة. وهـدفُ كـلارك: حصولُهُ على نيِّفٍ و1000

طائرة (أقل مما في حرب الخليج) حتى يكون مستعداً للتدخل ليس فقط ضدّ الأهداف الثابتة بل ضدّ المتحرّكة أيضاً. وفيما اللاجئون الهاربون من كوسوفو بلغوا أكثر من نصف مليون، قرّر "الأطلسي" إرسال أكثر من 100 طائرة دائمة التحليق فوق كوسوفو لقصف أيِّ هدفٍ متحرِّك يظهر على الأرض.

ببلوغ الأزمة هذا الحدّ المعقّد من التصعيد، أصبح الأميركيون يتحكّمون بكافة العمليات، ويملكون 70٪ من الطائرات و90٪ من القنابل والصواريخ المطلقة، ما أقلق الأوروبيين وجعل الخُضر الألمان يستنكرون "حرب التعدي" يطلقها "الأطلسي"، وغرهارد شرودر يَقلَق من خطر انفجار التحالف.

وكان لرئيس وزراء إيطاليا (مسّيمو داليما) موقف مشابهٌ، وهو بدأ يضعف في روما التي كانت تخشى انصباب اللاجئين لديها، وقسمٌ كبيرٌ من الطائرات الحليفة ينطلقُ من قواعدها. وفي فرنسا خشي السكان الأمر نفسه. لذا انكبَّ جاك شيراك على دراسة الوضع تعاوناً مع ليونيل جوسبان، ولكن الرجلَين كانا يثقان بوزيرَيهما المعنيَين: هوبير فِدرين (الخارجية) وآلان ريشار (الدفاع).

خلال القمة الأوروبية (1999/4/14) توصَّل طوني بلير الى إقناع جاك شيراك بقبوله مضاعفةَ الضغط العسكري، وكان الرئيس الأميركي اتصل غير مرّة بنظيره الفرنسي للغاية نفسها إزاء وعي الجميع بأن زيادة القصف ستولّد زيادةً في فداحة الموقف.

كانت الأوامر المعطاة للطيارين أن يقصفوا أهدافهم من علوّ 5000م. وعن ديبلوماسيٍّ أنَّ "هذا الخَيَار كان ضرورياً للحفاظ على حياة الطيارين، لأن مصرع أحدهم أو احتجازه يسحب دعم الرأي العام لهذه العملية".

وعن طيّارٍ قائدِ "ف16" قوله: "من هذا العلوّ لا أرى على الشاشة أمامي إلاّ مصدرً حرارةٍ متحرِّكاً دون أن أعرف بالضبط نوع الآلية: مصفّحة أو شاحنة عسكرية أو جرّاراً". وهذا ما يفسِّر أن طائرة قصفت خطأً بمجموعة مدنيين في قطارٍ للركّاب كان يعبر جسراً معتبَراً "هدفاً عسكرياً". وأوقعت تلك الضربة أكثر من 10 ضحايا.

في أساس الخطط العسكرية الأميركية، ولدى مسؤوليها السياسيين: إطلاقُ "حربٍ شريفة باستخدام أسلحةٍ متطوِّرة جداً لا تُوْقِع ضحايا كثيرة". وكانت نتائج حرب الخليج غير مأساوية، بفضل الأسلحة المتطوِّرة (مقتل 100 جندي عراقي واختفاء عنصرٍ واحد).

وعن مسؤولي البنتاغون و"الأطلسي" أن "نجاح تلك العملية يعود الى السيطرة الكاملة على المعلومات وعلى معرفةٍ تامة ومتواصلة بقوات العدوّ ونقاط ضعفها وتضعضعها".

سوى أن هذه الخطة لم تكن صالحة أبداً في كوسوفو، بدليل تصريح ويسلي كلارك: "طوال عشرين يوماً من القصف، لم نشهد سوى سبعة أيّام من الطقس المشرق". فالغيم الكثيف كان يشكّل للصرب درعاً أميناً، وكان جنود بلغراد يحاربون بشكل بدائي، مرتدين ثياب فلاّحين ويختبئون في المنازل التي طردوا منها سكّانها.

مع ذلك لم تضعف الآلة العسكرية اليوغوسلافية بل على العكس قَوِيَت حتى بلغت القوات الصربية داخل الإقليم أكثر من 000 43 عنصر.

التعليمات المعطاة الى أسراب الطيّارين بالقصف فوق كوسوفو كانت صارمة: ممنوعٌ أن يهبطوا أدنى من 5000م، وممنوع أن يقصفوا الطائرات الصربية "إلاّ في حالة هجومها المباشر عليهم". وعن بعض الطيارين أنهم رأوا طياراتٍ معاديةً تُقلِع وتطير تحتهم، بكلِّ حرية وبدون احتراز،

قاصفةً مواقع جيش تحرير كوسوفو أو قرًى ألبانيـة. وخسـرت بلغـراد أكـثر من نصف طائراتها الـ"ميغ 29" (أسطولها الكامل: 15 طائرة)، وبقيت لديهـا طائراتٌ قديمة تنتظر في الملاجئ وتستطيع دعم أسرابها ميدانياً.

في منتصـف نيسـان/أبريـل قـدَّرت الولايـات المتحـدة بلـوغ تكلفـة الحرب نحو أربعة مليارات دولار (ثلاثةٌ منهـا كلفـة العمليـات الجويـة). وفي بـاريس أعلنـت وزارة الدفـاع أن الـتزام فرنسـا بقـوات "الأطلسـي" يكلّـف ميزانيتها ما بين 250 و300 مليون فرنك شـهرياً، إضافـةً الى تخصيصهـا 600 مليون فرنك لمساعدة اللاجئين والدول التي تأويهم.

في 1999/4/18 اتصل بيل كلينتـون ببوريـس يلتسـين (للمـرة الأولى بعد اتصال 24 آذار/مارس حين أعلن الرئيس الأميركي ليلتسين الغاضب نبـأ بدء القصف). كان الحوار الهاتفي أهدأ هذه المرة. فعن أحد معاوني كلينتون أنه "كان مضطراً الى إعادة الحوار لأن الصدام مع صربيا جمَّد العلاقـات بـين واشنطن وموسكو، ولأن المشاعر المعادية للأميركيين ولـ"الأطلسـي" كـانت تتزايد في أوساط السكان الروس"، وكان كلينتـون بـدأ يشـعر بـأن مواصلـة القصف سيعقّد أكثر فأكثر أيَّ حلٍّ تفاوضيٍّ تدخل فيه روسيا.

كان مقـرّراً أن تبـدأ بعـد خمسـة أيـام مـن ذاك الاتصـال احتفـالاتُ الذكرى الخمسين لتأسيس قوات "الأطلسي". قال كلينتون لنظـيره الروسـي إنه يتشـرّف بدعـوة روسـيا للاشـتراك في هـذه الاحتفـالات، فجـاء جـواب يلتسين رمادياً: لم يرفض الدعوة، لكنه "لم يلحـظ" إرسـال بعثـةٍ روسـية الى واشـنطن لحضـور هـذه المناسـبة. غـير أنّـه بـدا مرتاحـاً الى اتصـال الرئيـس الأميركي وأفهمه أنه ضدّ تدخل "الحلف".

ويرى مسؤولٌ أوروبي أنَّ "دعم يلتسين لبلغراد يشبه الحبل الذي يعلّق المشنوق: ميلوسيفيتش كان يغيظ موسكو، والكرملين يعتبر صربيا – ديبلوماسياً– حملاً ثقيلاً عليه".

وتحرّكت إدارة كلينتون بكلٍّ تأنٍ لإعادة الحوار مع الروس: نائب الرئيس الأميركي آل غور أجرى (في 1999/4/6) اتصالاً طويلاً بنظيره بريماكوف، وبعدها بأيامٍ (1999/4/13) كانت مادلين أولبرايت تلتقي في أوسلو نظيرها إيغور إيفانوف.

الفصل الثالث عشر

الثلاثاء 1999/4/20 قام طوني بلير بزيارةٍ خاطفة الى مقرّ "الأطلسي" (في بروكسيل) ليؤكّد قرار الحلفاء الاستمرار في الهجوم حتى استسلام ميلوسيفيتش. وكان كلامه حادّاً كمواقفه منذ بدء النزاع، هو "صقر" التحالف المعتبِرُ أنَّ مصداقية هذا الأخير ومستقبله يتوقفان على نجاحه في هذا النزاع. وعن مسؤولٍ إنكليزي أنّه "كان يكرر هذا الرأي خلال محادثاته مع شركائه في أوروبا والولايات المتحدة". وعن شاهدٍ عيان أنَّ "كلينتون المتردِّد كان معجَباً بتصميم بلير وحيويته".

ثـمّةِ شبهٌ غريب بين موقف بلير إزاء كلينتون في ملف كوسوفو، وموقف مارغريت تاتشر إزاء جورج بوش خلال أزمة الخليج. فبُعَيْدَ الإعلان عن غزو القوات العراقية أرضَ الكويت (1990/8/1) التقى الرئيسُ الأميركي في آسبن (كولورادو) رئيسةَ الوزراء البريطانية التي بادرته: "جورج... صدّام حسين لن يتوقف في الكويت. ويجب أن نوقفه فوراً". وخلال لقائهما هذا، وُلدت للمرة الأولى فكرةُ ردٍّ دولي على هجوم بغداد. وجواباً عن سؤال بوش: "أتعتقدين أنَّ الفرنسيين يوالوننا؟" أجابت باسمةً: "ربما في البدء لا، لكنك إذا خاطبتهم بصرامة سيوالونك" (كان بوش يرى في العلاقات المميزة بين واشنطن ولندن أساساً يبني عليه حلفاً قوياً). في تلك الفترة، كانت أميركا تمتلك ترسانةً حربيةً لا سابقة لها تجمّعت على عهد ريغن، مما حدا بأحد الخبراء الى القول: "لو خسرنا 1000 دبابة "م1"، وهذا مستحيل، لما اضطُررنا الى إعادة تصنيع هذا الطراز، لأن لدى جيشنا منه أكثر من 7000 دبابة، ما يجعلنا ندخل أيّ حرب بدون تردد".

لذلك، حين وصل الجنرال نورمان شوارزكوف (عُيِّن لاحقاً: القائد الأعلى للتحالف) الى لقاء الرئيس بوش الذي بادره: "ما العتاد الذي

تحتاجونه؟"، أجاب: "في عمليةٍ دفاعية بحتة، نحتاج 700 طائرة، بضع عشرات من السفن، و000 140 جندي". نُفِّذَت طلباته فوراً، وبعد أشهرٍ كانت قوات التحالف تضمّ نصف مليون عنصر و2700 طائرة.

بعد تسع سنوات، كان بلير يبدي الاستعجال نفسه والتصميم الحازم نفسه (كما لدى السيدة الحديدية) تساعده ابتسامته المحببة على تبديد مزاج له جارح يجعله "قاسياً ذا مبادئ" (كما حدّده أحد المقرّبين منه).

خلال زيارته الخاطفة تلك الى بروكسيل لم تكن تهمّه التطورات العسكرية المحتملة، بقدْرما كان قلِقاً على غرق "الحلف" في رمال الصراع المتحركة. ولذا أعلن أمام الصحافة أنَّ هجوم "الحلف" سوف "يتواصل حتى إسقاط ميلوسيفيتش". وكان قُبَيْلَ ذاك (خلال لقائه أمين عام "الحلف" خافيير سولانا وقائد قواته الأعلى ويسلي كلارك) أعلن بحزمٍ وقناعةٍ أنَّ فداحةَ أزمة اللاجئين ونتيجةَ القصف الجوي غير المؤكّدة تفرضان البحث الجدّي في نشر قواتٍ برية. وكان بلير في ذلك يستند الى دراسات، رفعها إليه قائد قواته الأعلى تشارلز غوثري تؤكّد المبالغة في أرقام قدّمها البنتاغون و"الحلف" بالحاجة الى 000 200 عنصر لإنهاء النزاع بهجومٍ عسكري ضدَّ صربيا. ولذا قال: "علينا اتخاذ قرارنا بسرعة، وإلاّ فلن تنتشر فرقنا على الأرض قبل الخريف، والشتاء يأتي باكراً في البلقان".

في هذه الأثناء، كان آليستير كامبل (مستشار بلير لشؤون الإعلام) يقوّي الفريق الإعلامي حول الناطق الرسمي جامي شيا، حتى بلغ في بضعة أيّامٍ نحو 20 خبيراً (معظمهم إنكليز وأميركيون) يعملون على مدِّ الصحافيين بـ"أخبارٍ مُسيرَّة" عوضَ الوقائع الحقيقية. وحول هذا علّق ديبلوماسيٌ بقوله: "غاية غرفة الصحافة هذه، إسداء مقالاتٍ جاهزة، مكتوبة بجميع لغات

"الحلف": الإيطالية، الفرنسية، التركية، الاسبانية، حتى تنشر جميع الصحف الأخبار المطلوب تمريرُها".

كان الاقتراح طريفاً لكنه غير بعيدٍ عن أهداف طوني بلير الذي منذ بداية النزاع كان ينتقدُ تغطية مندوب الـ"بي.بي.سي." لأنها كانت مؤاتيةً للصرب. وبدا أنَّ بادرة بلير تُبَطِّنُ نقطةً مهمة: ليس "الحلف" وحده بل البيت الأبيض أيضاً ليس محترفاً في الإعلام. فكلينتون كان يبدو، وفريقه، محرَجاً متردِّداً ينوء بالأحداث، رغم ما صرّح به مقرّب منه يوماً بأن "كلينتون إعلاميٌّ ممتاز. ففيما نيكسون نجح في تصوير سقوط سايغون مسبقاً على أنه مفتاح السلام، يمكن رئيسنا الحالي أن يبيع الرأي العام أيَّ حلٍّ ديبلوماسيٍّ أو عسكري".

غير أنَّ المقارنة، هنا أيضاً، مع حرب الخليج، ليست في صالح إدارة كلينتون. فالمهتمون بصورة الرئيس بوش في الإعلام استغلوا حرب الخليج لحملةٍ سياسية وعملية علاقاتٍ عامة يمكن عبرها "تمرير رسائل" و"الانتصار على" الخصم في ساحة الحرب النفسية. وتمَّ لذلك إنشاء غرفة خاصة بإشراف روبرت غيتس (نائب رئيس مجلس الأمن القومي، ولاحقاً مدير وكالة الاستخبارات) يعمل فيها مع خبراء من البنتاغون ووزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات على تدبيج "رسائل يومية" بشكل معادلاتٍ مقنعة تثبِّتُ مصداقية تحرُّك الرئيس وإدارته، وتزيد من العدوانية ضدَّ صدّام حُسين. وكانت تلك "الرسائل" تصل بين يدَي الرئيس بوش، يوافق عليها ويسلّمها الى الناطق الرسمي مارين فيتزووتر يجسُّ بها جو الصحافيين (خارج الكاميرات) ويعود لينقل الى المكتب البيضَوي ردود فعلهم. عندئذ تُرسَل العبارات اللاقطة الى الناطقَين باسم وزارة الخارجية والبنتاغون، فيروحان أمام الصحافيين وكاميراتهم يبثّان العبارات المُراد إيصالها الى الرأي العام عبر نشرات الأخبار المسائية. هكذا مثلاً، حين بثَّ التلفزيون العراقي مشاهد

طيّارين أميركيين أسرى تعرّضوا للتعذيب، كان مطلوباً تمرير عبارة: "سيعاقَب صدّام حُسين على جريمة حرب".

توازياً مع تلك الرسائل المبثوثة، كانت فاكسات يومية ترسَلُ وِسْعَ الولايات المتحدة كلّها الى صانعي القرار المؤيدين إدارة بوش (رجال أعمال، شخصيات سياسية وفنية وتبشيرية) حاملةً مذكّراتٍ مدعومةً بوثائق تنتهي دائماً بالإشارة نفسها: "أنشروا هذه الأفكار، سواءٌ في حفلة كوكتيل أو في اجتماع بمجلس إدارة". وبهذه الدقة نفسها كانت تُصقَل صورة بوش ليظهر دائماً رئيساً هادئاً وحازم القرار. لذلك، منذ بدء النزاع، كان القادة الأميركيون يعلّقون أهمية كبرى على الحالة النفسية بالحفاظ على رأيٍ عامٍ موحَّد طوال الحرب حتى إسقاط نظام صدّام كليّاً. وكان التنسيق تاماً بين البيت الأبيض والبنتاغون على ضرورة تمرير الصورة موحَّدةً عبر وسائل الإعلام. ومن تفاصيل تلك الحملة تزويدُ معظم الطائرات الأميركية (المقْلِعة في طلعات قصف) بكاميرات يقتطف من أفلامها المعنيون يومياً الى الإعلام مشاهد تُظهِرُ الضربة تصيب الهدف تماماً. فكان الأميركيون ومعهم سكّان العالم أجمع يرَون الصواريخ والقنابل تصيب أهدافها بدقّةٍ بالغة أثّرت في الرأي العام فأخذ يزداد إعجاباً بحربٍ تقودها الولايات المتحدة بسيطرة تكنولوجية دقيقة. وعن خبيرٍ عسكري قوله يومئذٍ: "كان يجب أن تكون هذه أوّل حرب لا يُمضي خلالها الناس أيامهم في إحصاء الجثث كما أيام فيتنام، بل في إحصاء حطام الطائرات والدبابات والمدافع المعادية".

غير أن السيناريو في حرب كوسوفو كان يسير في الاتجاه المعاكس. فمشاهد مئات آلاف اللاجئين على شاشات العالم كانت تُثبتُ قدرة القوات الصربية على الإيغال في تفريغ البلاد من دون ظهور أيّ إثبات عينيّ على انهيار الآلة العسكرية اليوغوسلافية أو تدميرها. فجنود بلغراد كانوا مختبئين، موزَّعين مع عتادهم، حتى ليستحيل إعلان أيِّ انتصارٍ عليهم.

كان جو لوكهارت (الناطق الرسمي باسم البيت الأبيض، المعيَّن قبل ستة أشهر) يعكس بوضوح الانزعاج المنتشر في صفوف فريق كلينتون. فهو دائماً يظهر كثير التوتر، قليل الابتسام، مبهَمَ التصاريح، ما يعكس بشكلٍ لاإرادي اضطرابَ سيِّد المكتب البيضَوي. ولكان أسهلَ تمريرُ صورة رئيسٍ حازم القرار (بوش) من تصوير رئيسٍ متردِّدٍ في السياسة الخارجية (كلينتون). فالرئيس لا يكون استعادياً، ولا يعود يتردّد في خياراته بعدما يحسمها. بينما كلينتون تردَّد طويلاً قبل أن يوافق على إرسال 24 طائرة هليكوبتر لقصف الدبابات كان ويسلي كلارك طلبَ إرسالها الى ألبانيا. وقبل قراره استشار معاونيه وأصغى الى آراء مسؤولي القوات البرية الموجلة الاهتمام بتلك المعدّات وبالأمور اللوجستية التي تحيط بها. وصرّح مراقبٌ أنّ "المواقف بلغت أوج احتدامها بين القوات الجوية وقيادة القوات البرية". وكان تردُّد كلينتون يزيد من حدة هذا التوتر بين الفريقَين، الى أن استدعى (أخيراً!) كوهين وشلتون الى مكتبه، ليعلن لهما قراره: "قررتُ الموافقة. أرسلوا القوات".

كان كلارك ومعاونه الجنرال الألماني ناومان يريدان استخدام تلك الطائرات لتدمير بطاريات المدفعية اليوغوسلافية المتمركزة على طول الحدود مع ألبانيا. و لم تكن تلك الطائرات قامت بعدُ بأية مهمة. غير أن كلينتون كان يعترض على ذلك بعد خسارة طائرتين منها خلال عمليات تدريبية. وعن خبيرٍ عسكريٍّ قوله: "الأهداف الوحيدة التي أصابها قصف "الأطلسي" وعلم بها الرأي العام هي أخطاء القصف التي سبَّبت مقتل المدنيين". وهذه الحقيقة كانت تزيد من توتّر المسؤولين العسكريين. وربما لذلك رمى كلارك الى تدمير محطّة التلفزيون اليوغوسلافية لإيقاف بثّ الصور المؤذية عبر وسائل الإعلام في بلغراد. وهنا يتذكّر المسؤولون الإعلاميون (عند تقييمهم أخطاء "الحلف") هذه النادرة التي سرت خلال حرب الخليج: بعد سقوط اثني عشر

جندياً من المارينز بسبب خطإٍ في القصف، ظهر الجنرال نورمان شوارزكوف خلال ندوته الصحافية اليومية في الرياض، وهو يحمل شريط فيديو في يده قائلاً للصحافيين أمامه: "سأريكم اليوم أكبر الرجال حظاً في العراق". وكان في الشريط مشاهد من طائرةٍ تقصف جسراً بقنابل الليزر فتصيب الهدف في وسطه على بضعة أمتارٍ من شاحنةٍ مرَّت ولم تُصَب بأذى. ثمَّ التفت شوارزكوف الى الصحافيين معلقاً: "أرأيتم هذا؟ إنها أعجوبة العصر". ثمَّ أعاد بثَّ الشريط بسرعته العادية، ومرّة أخرى بالسرعة البطيئة وهو يشرح بالتفصيل دقّة تصويب القصف. وأخيراً شدَّد على حظ سائق الشاحنة العراقي بأن السلاح الذي قَصَفَ كان بهذه الدقة فلم يصبه بأذى. ولم ينسَ، حين أنهى الندوة بعد نحو عشرين دقيقة من التعليقات، أن يقول بشكل هامشي: "خسرت قوات المارينز اليوم 12 عنصراً في إحدى العمليات". وفي النشرات المسائية صدرت في جميع محطات التلفزيون مشاهدُ الجسر المقصوف، ومرَّ خبر مقتل المارينز الاثنَي عشر بطريقة هامشية جداً.

كان مبدأ شوارزكوف: "التقليل من أهمية العنصر البشري والتركيز على العنصر التكنولوجي". غير أن هذا المبدأ لم يكن صالحاً أبداً للتطبيق في حرب البلقان لأن العنصر البشري (كارثة اللاجئين) كان يتقدَّمُ جميع نشرات الإعلام، وواضحاً يبدو فشل التكنولوجيا.

الفصل الرابع عشر

واشنطن- الجمعة 1999/4/23: موعد افتتاح احتفالات اليوبيل الخمسيني لتأسيس منظمة حلف شمال الأطلسي. وصل طوني بلير الى العاصمة الأميركية قبل يومَين، لأنه في اتصال سابق مع الرئيس الأميركي طلب منه الاجتماع به منفرداً قبل موعد القمّة فاقترح عليه الأخيرُ "عشاء عمل" ليلة وصوله. فعن أحد الرسميين الإنكليز أن الأميركيين "يعرفون الخطوط العريضة لما سيقوله بلير لكنهم لا يعرفون اللهجة التي سيعرض فيها ما يقوله".

وبالفعل، كانت غريبةً تلك السهرة في البيت الأبيض، تحوَّل فيها رئيس الوزراء البريطاني الى مبشّرٍ ملهم على مسمعٍ من مادلين أولبرايت وساندي برغر الجالسَين على مقعدٍ قبالته. ومما قال: "يلزمنا مخططٌ يؤدي الى النجاح الأكيد. هذه الحرب تحدٍّ أخلاقيٌ أمام جيلنا، والسيادة الوطنية اليوم أقلُّ شأناً من احترام حقوق الإنسان وتجنّب المجازر. هذا هو الهدف المزدوج للتدخّل العسكري الحالي". هزَّ كلينتون وأولبرايت برأسَيهما موافَقةً فيما بقيَ برغر جامداً. وأكمل بلير: "وقْفُ الإبادة الإتنية في كوسوفو، أجملُ رمز يَسِمُ هذا اليوبيل الخمسيني". ثمَّ سردَ بلير ملخّصاً عن تقارير سرّية تسلّمها من أجهزة المخابرات الإنكليزية تُجمِع على تفتت سلطة ميلوسيفيتش الذي عزل عدة جنرالات وسجن آخرين، لارتيابه بانقلابٍ ضدّه، فضلاً عن أنَّ كثيرين بين المقرَّبين منه باتوا يعارضون سياسته، في حين بدأت قواته تضعف في كوسوفو وتتشرذمُ وتندثر. وعقّب بلير على كلامه بأن التهديد العسكري الصربي مضخّمٌ، وبأن الـ000 43 جندي في كوسوفو "ضعيفو الحميّة فقيرو التجهيزات" ولذا فتدخّلُ قوات "الحلف" عسكرياً لن يوقع الخسائر المتوقعة. واعتبر بلير أن رقم 000 200 عنصر لإطلاق العملية هو عددٌ وهميٌّ لا يستند الى منطق، ونصف هذا العدد كافٍ للمهمة، وبريطانيا العظمى مستعدةٌ

لتقديم 35٪ منهم ليكونوا في الفيلق المصفّح الأوّل، ويمكن تجهيزهم في بريطانيا العظمى وفي ألمانيا.

هنا، تكلّم ساندي برغر بعد طول صمت سائلاً: "ولكن، سيّدي رئيس الوزراء، لا يمكن قوات "الأطلسي" دخول كوسوفو بدون موافقة ميلوسيفيتش". فأجاب بلير بلهجةٍ جافة: "ليس لميلوسيفيتش أن يعترض على ما نقرره نحن". وكانت ملاحظة برغر تعكس تبايُناً منذ بدء النزاع بين مسؤولي "الأطلسي": "هل تتدخّل قواته على أراضي دولةٍ مستقلّة؟". وكان ذلك يعني بوضوح: "هل عليها أن تقاتل أو أن تنتشر وحسب؟".

كان بلير يرى هذه النقطة محسومة: تنتشر قوة حماية دولية ولو بدون موافقةٍ رسمية من بلغراد، "شرط ألاّ تصادفها مقاومة على الأرض". غير أن هذه الحجة لم تقنع تماماً محاوريه الأميركيين. فكلينتون، عدا تخوفه من سقوط الضحايا، كان يعتبر القبول بهذا الإجراء اعترافاً بفشل الضربات الجوية. ولم يكن سيّد البيت الأبيض مقتنعاً بعدُ بنشر القوات البرية.

بعد ثلاث ساعات من الحوار، اعترف الحليفان بالتباين بينهما في الرأي. وأراد بلير أن يستفيد من القمة ليثير أمام قادة "الحلف" موضوع إرسال القوات البرية. وكان كلينتون يرفض كلياً هذا الحوار الذي يُضعِف اشتغال الإدارة الأميركية عليه، لذلك أعلن لبلير بلهجةٍ ودية إنما حازمة: "ليس الوقت مناسباً لطرح هذا الموضوع". ذلك أنه (كما يقول موظّفٌ كبير في الخارجية) "لم يشأ أن يسيطر هذا الموضوع على ثلاثةِ أيامِ قمةٍ تنعقد في أسوإ الظروف. ففي حين المرصودُ على الاحتفال باليوبيل تمتين دور "الأطلسي" مركزياً في الرأي العام العالمي بعد الحرب الباردة، إذا بـ"الحلف" يواجه أوّل نزاعٍ في تاريخه وأول شكٍّ في قدرته العسكرية التي وُجِدت قبل

نصف قرن لتردع هجوماً سوفياتياً فإذا بها اليوم عاجزة عن ردع بلدٍ من عشرة ملايين نسمة".

أُلغيَت الاحتفالات المقررة أو أعيد النظر في معظمها. أُلغيَ اللباس الرسمي (السموكنغ) من عشاءَين رسميَين في البيت الأبيض واستعيضَ عنه بلباسٍ عاديٍّ (ربطة عنق) يعكس مناخاً غير احتفالي. وصادف افتتاح الاحتفالات مرور شهرٍ تماماً على انطلاق الضربات الجوية بحصيلة 3000 هجوم فوق صربيا.

كان 2000 صحافي يغطّون الحدث في العاصمة الأميركية وتحوّل أوديتوريوم أندرو مالون (حيث جرت الحفلة الافتتاحية وجلسات القمة) الى ورشة عمل في هذا المكان نفسه (مقابل المتحف الوطني للتاريخ الأميركي) حيث تمَّ التوقيع قبل خمسين عاماً (1949/4/4) على ميثاق ولادة "منظمة حلف شمال الأطلسي".

وعن أحد المراقبين أنَّ "التهديد السوفياتي انكسر يومها من دون أن ينكسر السوفيات، ولن تكون الحروب اللاحقة، كما الحال في كوسوفو، إلاّ محليةً أو إقليمية. من هنا أن المعطيات تغيَّرت كلياً إلاّ في نقطةٍ واحدة: أياً تكن طبيعة الحرب وقوَّتها، يظلّ الأوروبيون مرتبطين عسكرياً بالدعم الأميركي".

في تلك القمة، قبِلَ "الحلف" عضوية ثلاثة بلدان جديدة (كانت طوال 45 سنة تنتمي الى المنظمة المعادية لحلف فرصوفيا): هنغاريا، بولونيا والجمهورية التشيكية. وكانت موسكو مارست ضغوطاً كي لا تشارك هذه البلدان الثلاثة في القمة، سيما وأن رئيس الوزراء الهنغاري فيكتور أوربان (لبلاده حدود مشتركة مع يوغوسلافيا) وافق على إقلاع طائرات "الحلف"

من ثلاثة مطاراتٍ عسكرية في بلاده، وكان ذاك قراراً صعباً تتخذه بودابست الخاضعة لسيطرة واشنطن.

رُوعِيَ طوال ثلاثة أيام القمة مبدأ "كثرة التفكير بالأمر إنما قلة الكلام عليه". وتقاسم القادة الحاضرون الاثنان والأربعون مجموع الاستفهامات نفسها حول مستقبل الحرب في كوسوفو، لكنهم لم يثيروا أبداً موضوع تشكيكهم في ما يجري.

في 1999/4/25، نشر تيم واينر في الـ"*نيويورك تايمز*" مقالاً لافتاً أظهر كم أنَّ المأساة في البلقان ضالعةٌ في مؤتمر قمّةٍ يبعد عنها 6000 كلم.

ومما جاء في المقال:

"بينما كان الرئيس كلينتون في الساعة 8:10 مساءَ الخميس 1999/4/22 يعيد قراءة نصّ الخطاب الذي سيتلوه في القمة، قصفت صواريخ "الأطلسي" مبنى تلفزيون الدولة في بلغراد فدمَّرته.

وبينما كانت سيّارات الليموزين السوداء تنقل رؤساء الدول والحكومات من قلب واشنطن الى البيت الأبيض (الساعة 7:30 صباح الجمعة 1999/4/23) كانت جرّاراتٌ خضراء محمّلةٌ باللاجئين تتجه بطيئةً صوب مدينة ليبكوفو الحدودية في مقدونيا. وقال أحد هؤلاء اللاجئين (عجوزٌ يدعى رفعت بَجْرَمي): "عاملني الصرب كحيوان. لماذا؟ أيَّ ذنبٍ اقترفت؟ أمضيتُ حياتي كلّها أبني منزلي وعائلتي، وها حياتي الآن دمّرها الحقد الأعمى".

في بلغراد، عند الساعة 9:30 صباحاً، بينما كان رجال الإنقاذ ينتشلون الأجساد والجثث من دمار مبنى التلفزيون، كان كلينتون يفتتح القمة وينتقد سلوبودان ميلوسيفيتش قائلاً: "قوات ميلوسيفيتش تحرق المنازل وتسبيها وتغتال سكّانها الأبرياء، بينما قواتنا تحمل الغذاء الى اللاجئين

وتؤمّن لهم الملجأ والأمل. إنَّ ميلوسيفيتش يؤجّجُ نيران الغضب بين الأمم والشعوب ولا يعرفُ إلاّ القوة الوحشية طريقاً وحيداً لبلوغ أهدافه". واستشهد بفقرة من خطابٍ ألقاه عام 1949 وزير الخارجية آنذاك دين آكسون، أَمِلَ فيه أن يُسهم خلق "الحلف" بـ"تحرير عقول الكثيرين في دول كثيرة من الشعور بعدم الأمان".

فيما كان كلينتون يتكلّم، كان برانكو نوفاكوفيتش (ديبلوماسي يوغوسلافي متقاعد، 78 سنة، أمضى تسع سنوات في واشنطن) جالساً أمام نافذة شقّته (في الطابق السابع) يتأمّل مبنى الحزب الشيوعي الذي دمّرته قوات "الأطلسي" ليل الأربعاء. وكان نوفاكوفيتش استفاق صباح الجمعة بعد ليلة رهيبة من القصف وسمع من الإذاعة نبأ تدمير مبنى التلفزيون ومقتل 12 رجلاً واختفاء عددٍ آخر. وفي اتصالٍ صحافي هاتفيٍ معه قال: "الأخبار سيئةٌ جداً. قصفٌ هنا وقصفٌ هناك. عشرات الناس يعيشون في الملاجئ، وفي ظروفٍ قاسية، منهارين جسدياً ونفسياً، لا يدرون ماذا ينتظرهم في اليوم التالي. يعيشون في الخوف الذي لم يعد يحتمله الكثيرون، بينما يستمر القصف ولا يدرون لماذا. ليسوا مذنبين ولا كانوا منتظرين موقفاً كهذا من دولٍ كانوا يظنونها حليفة ويحبّونها، وبدأوا الآن يكرهونها". وحين بلغَتْه أقوالُ الرئيس كلينتون في خطابه الافتتاحي أجاب: "مهما يكن تفكيره وأياً يكن الذين يلومهم، ليست هذه هي الطريق الصحيحة. لا فكرة عندنا مطلقاً عما يجري في كوسوفو، لكن احتجاز سكان بلدٍ بكامله وحصارهم كلّ هذا الوقت عملٌ فظيع وغير إنساني" (انتهى الاستشهاد من الـ"*نيويورك تايمز*").

بُعَيدَ الواحدة ظهراً بدأ القادة الحاضرون في واشنطن يلقون خطاباتهم، وجاء أقصرَها على الإطلاق خطابُ كوستاس سيميتيس (رئيس الوزراء اليوناني) لأن اليونان هي الأقلّ حماسةً لضربات "الأطلسي" الجوية.

ومما قال سيميتيس: "أيها السيدات والسادة، قبل خمسين عاماً من اليوم، سنة 1949، دخلت القوات الحكومية قريةً يونانية وقَتلت شابّين بحجة أنهما شيوعيان بلغاريان. وبعد يومين عادت القوات من جديد وقتلت شابين آخرين بحجة أنهما فاشيان أميركيان. إن على قوات "الأطلسي" أن تواصل جهودها لإلغاء هذه الممارسات وتلك العقلية، وأن تضمن التعاون والتضامن والسيادة بين الدول، وهذا هو الهدف الأسمى الذي علينا التعلّق به".

وحين انتهى القادة من خطاباتهم (في الثالثة بعد الظهر)، كان لاجئون من قرية ماليسيفو (800 منزل) ينامون في بطانيات على منبسَط من الأرض أُعِدَّ لهم في مخيّم نيبروستينو للاّجئين في مقدونيا. وروى بعضهم الى بن وارْد (مسؤول في منظمة حقوق الإنسان): "دخل قريتَنا مسلّحون مقنّعون من قوات أنصار الجيش الصربي، فسرقوا كل ما وجدوا، وفصلوا الشبان عن العُجَّز. ثم أمروا الشبان بالانبطاح، وجههم للأرض وأيديهم فوق رؤوسهم. ثم أخرجوا لوائح بأسماء أشخاص سألوا الشبان أن يعطوهم معلومات عنهم وإلاّ قتلوهم. ثم قتلوا اثنين بينهم: فتى في الثامنة عشرة وآخر في العشرين، وأمروا رجلاً في الرابعة والثلاثين أن يحفر قبراً بيديه ويدفنهما". وحين نقل وارْد القصة على الهاتف في سكوبيا، أردف: "كان واضحاً لدى أولئك المساكين شعورُهم بالرعب الفظيع".

كانت الساعة 4:15 بعد الظهر في واشنطن، حين دوّت في ليل بلغراد صفارات الإنذار بقصف جوي. وما هي إلا دقائق معدودة حتى دوّى في القصر الرئاسي انفجارٌ هائلٌ عطّل أجهزة الإنذار في شوارع عاصمةٍ تلفّها حالة التأهب القصوى تنبُّهاً للهجمات الإرهابية.

بعد خمس وعشرين دقيقة بالضبط (في الساعة الرابعة والدقيقة الأربعين) أعلن ساندي برغر (رئيس مجلس الأمن القومي) أن المسؤولين في

دول "الحلف" وافقوا على تكثيف الضربات الجوية ضد الأهداف السياسية والعسكرية والاقتصادية في بلد ميلوسيفيتش، مما يعني ازدياد انهمار القنابل والصواريخ على بلغراد.

عند تلك اللحظات نفسها، في العاصمة اليوغوسلافية، كانت غوردانا ريستيك (33 عاماً) تتهيَّأُ لقضاء ليلة أخرى في ملجإٍ حضّرْتُهُ في الطبقة تحت الأرضية من بيتها (على نحو كيلومتر واحد من بلغراد). وعلى الهاتف قالت: "الليلة الماضية كانت رهيبة. عند الثانية بعد منتصف الليل تصعّد القصف في انفجارات لا يفصل بين واحدها والآخر سوى بضع دقائق. واستيقظتُ صباح اليوم على حالة غريبة: ذهبتُ الى مكتبي في مؤسسة للعلاقات العامة والتسويق ورُحتُ أنظر حولي في وسط المدينة لأرى ماذا تهدّم فيه، شاعرةً أنّ هذا قد يكون آخر يوم لي أرى المشهد، إذ ربما انهدم كله هذه الليلة أو غداً...".

فيما نامت غوردانا مذعورة، كان رؤساء الدول والحكومات يقرأون لائحة الطعام في البيت الأبيض: سلطعون وخروف محشيّ، والتحلية: شوكولاطة بشكل كرة أرضية، والختام: سهرة مع المغنية جيسي نورمان.

قُبَيل منتصف الليل غادرت البيتَ الأبيض آخرُ سيارة ليموزين، فيما أطلقت صفارات الإنذار في بلغراد آخر صفرة لها إيذاناً بانتهاء الضربات الجوية. وأشرق على البلقان نهارٌ رمادي أخذ فيه المواطنون يزحفون على التلال ليبلغوا مسجد ليبكوف.

السبت صباحاً، كان الناطق باسم "الأطلسي" يعلن في واشنطن لائحة أهداف تم قصفها خلال الليل: مصفاة بترول، مطار، جسر، برج تلفزيون. ومساء ذاك اليوم، كانت فرق الإنقاذ تبحث في دمار مبنى التلفزيون عن أجساد حية و... جثث.

الفصل الخامس عشر

انتهت أعمال القمة بعد ظهر الأحد 1999/4/25، بالحفاظ على المبادئ العامة، والإجماع (أقلّه ظاهرياً) بين الحلفاء.

وكان الأميركيون، طوال الأيام الثلاثة، حرصوا برهافة حازمة على تمرير رسالة الى حلفائهم: "البلقان مسألة أوروبية، ويهمنا أن تتولّوها أنتم. لذا، رجاءً، لا تنتقدوا تحركاتنا". وتذكّر بعض الديبلوماسيين القدامى قول جيمس بيكر (وزير خارجية بوش) في ختام زيارة له الى يوغوسلافيا قبل ثماني سنوات والبلاد بدأت تتفكك: "لا مصلحة لنا في هذا الصراع".

وعن ديبلوماسي أميركي (شارك في المفاوضات مع الحلفاء في إطار "الأطلسي") قوله: "أسمع أحياناً مسؤولين أوروبيين يعلّقون على أزمة كوسوفو بأنها فرصة تُفَوِّتها أوروبا. وهذا مثال الخبث. فلو ان أوروبا أرادت فعلاً تثبيت حضورها وتضامنها الدفاعي، لكانت أثبتت ذلك. لكن الواقع أنْ ليس لدى الدول الأوروبية النية ولا الوسائل العسكرية اللازمة لذلك".

أثناء المباحثات في واشنطن، أُثير إمكانُ حظر بترولي على يوغوسلافيا، بعدما تمّ تدمير المصفاتين الرئيسيتين وعدد كبير من المستودعات وأخذ العسكريون في كوسوفو يسحبون البنزين من خزانات سيارات اللاجئين الهاربين ليملأوا خزانات سياراتهم العسكرية ومصفحاتهم. وهذه المعلومات (من الاستخبارات الأميركية، ولم تتأكد ميدانياً) كانت مفيدةً للتأكيد على فعالية القصف الجوي. وكانت مرافئ مونتينيغرو (وتحديداً مرفأ بار) تستقبل ناقلاتٍ للنفط (من روسيا)، حذّر شيراك من اضطرارها الى الانسحاب هرباً من ضربات "الأطلسي": "إذا قررنا الحظر، قد نعلن الحرب على دولة ثالثة ترفض الحظر. وهو قرار يحتاج الى موافقة الأمم المتحدة".

حظي رأي شيراك بالموافقة، ولو ان أوساط وزير الدفـاع الأميركي وليم كوهين وجدت "من غير المُلزِم العودة الى قـرار مـن مجلس الأمـن، لأن قوانين النزاع المسلح تبرر الحـظر".

استُبعِد قرار الحظر خشية الصدام مع روسيا. لكنّ وراء تلك الخشية الظاهرة أمراً مخفياً: كانت سفنُ عدةِ دولٍ من "الأطلسي" لا تزال تمد بلغـراد بالنفط. (في نيسان/أبريل أفرغت سبعُ نـاقلات نفـط حمولتهـا في مرفـإ بـار، اثنتان منها بريطانيتان والثالثة هولندية، والأربع الباقيـة تعـود الى عائلـة تجـار يونان). وعن تقـارير الاستخبارات أن سـفناً (مـن دول تابعـة لـ"الحلـف") تُفرِغُ دورياً ما يزيد حجمه قليلاً عن النفط المستورَد من روسيا.

كان الرئيس كلينتون يخشى أن يثير الرئيس الفرنسـي شـيراك (كمـا طوني بلير) موضوع نشر القوات البرية، هو الذي وافـق بلـير علـى قولـه في أحد الأروقة: "لا أنكر صعوبة انتشار قـواتٍ تواجههـا مقاومـة صربيـة، إنمـا علينا الإعلانُ أنّنا ننشر هذه القوات الدولية كي نتيح للمهجّريـن العـودة الى منازلهم". غير أن شيراك لم يُثِر هذا الموضـوع رسميـاً، بـل دافـع عـن ضـرورة إيجاد حلٍّ تفاوُضي تُشارك فيه روسيا والأمم المتحدة.

في واشنطن، غروبَ الأحد 1999/4/25، فيما كانت تُقلع الطائراتُ الأخيرةُ الحاملةُ رؤساءَ الدول والحكومات (إلاّ روسيا الـتي كـانت "الغـائب الأكبر" عن تلـك القمـة)، تلقـى كلينتـون اتصـالاً طويـلاً (90 دقيقـة) مـن بوريس يلتسين الذي (كما نقَلَ لاحقاً أحد معاوني كلينتون) "أراد أن يقحم الباب ويدخل، إذ لم يعد يحتمل أن تستمر المحرّيَات من دونه". لذا اقـترح أن يرسِل الى بلغـراد مندوبَـه الخـاص فيكتـور تشـيرنوميردين (رئيـس وزرائـه السابق) لأن ميلوسيفيتش أبدى استعداده لتنازلات قد تشكل عنـاصر اتفـاق

سلام، منها "موافقة الصرب على سحب قواتهم من كوسوفو والسماح للمهجّرين بالعودة".

ولم يحسن يلتسين إجابة سؤال كلينتون عن معنى عبارة "انسحاب القوات الصربية"، لكنه قال إن ميلوسيفيتش وافق على "وجود قوات دولية تحت إشراف الأمم المتحدة" التي تشكل روسيا عنصراً رئيسياً منها. كما لم يحسن يلتسين الإجابة عما إذا كانت كلمة "وجود" تعني المراقبين المسلحين أم الجنود.

سوى أن هذه المقترحات بقيت خارج الشروط الخمسة التي فرضها "الأطلسي" لكل اتفاق سلام: وقف إطلاق النار، انسحاب القوات الصربية، نشر قوات دولية في كوسوفو، نظام حكم ذاتي للإقليم، عودة جميع المهجّرين.

اقترح كلينتون على يلتسين أن يُرسل فوراً الى موسكو معاون وزيرة الخارجية (ستروب تالبوت) ليقابل تشيرنوميردين ويستوضحه تفاصيل زيارته الى بلغراد. وافق يلتسين وتم الاتفاق على جعل الموعد في اليوم التالي، وختم كلينتون: "أنا راغب، حضرة الرئيس، أن أُبقي الخطوط مفتوحة على أعلى مستوى بين روسيا والولايات المتحدة". فأجاب يلتسين: "في المرة المقبلة، أنت اتّصل بي... فكّر في الأمر ملياً".

كان الأميركيون يهدفون من زيارة تالبوت معرفة التأثير الدقيق للضربات الجوية على ميلوسيفيتش. وعن خبير في البنتاغون: "أردنا أن نعرف إن كان لا يزال يتأ لم بصمت، أم انه بدأ يصرخ".

وكان كلينتون يريد محو السلبيات الأخيرة بين روسيا والولايات المتحدة، لأنّ لموسكو دوراً أساسياً في المفاوضات مع بلغراد. وعن مقرَّب

منه قوله: "مع تقدم الأسابيع كانت الضربات تقوى، حتى بدأ كلينتون يقتنع بأن ميلوسيفيتش تحت تأثيرها سينتهي بالاستسلام وفتح المباحثات".

دخول موسكو على الخط اكتسب حجماً لائقاً بعودة الثقة المعقودة. فغداة الاتصال بين كلينتون ويلتسين، وفيما كان تالبوت يستعد للإقلاع من واشنطن الى موسكو، اتصل نائب الرئيس الأميركي (آل غور) بالمبعوث الروسي الى كوسوفو (تشيرنوميردين) الذي أعلن له أنه ينوي زيارة برلين وروما وبعض العواصم الأوروبية لتنسيق المواقف حول نظام سلام محتمل.

في واشنطن بدا كلينتون وكبار معاونيه منشرحين للوضع. وعن موظف كبير في البيت الأبيض أن "الروس يتصرفون بشكل يريحنا". على أن تلك العبارة كانت تحمل الكثير من السذاجة. فمكافأةً للروس على مبادراتهم، اتفق كلينتون وأولبرايت على أن أفضل المبادرات تجاه روسيا هي الموافقة على منح أرصدةٍ جديدة لبلادٍ مزعزعةِ الاقتصاد عاجزةٍ عن تسديد ديونها. ومارست الإدارة الأميركية ضغوطاً كبيرة على صندوق النقد الدولي ليؤمِّن بسرعةٍ منْحَ موسكو عدّة مليارات من الدولارات بشكل قروض. لكن كل ذلك لم يغيِّر من نظرة بوريس يلتسين ومعاونيه نحو الغرب، وظلَّ يلتسين في جلساته الخاصة يستخدم عبارة "بمجرمي الحرب الستة".

تأثير القصف الجوي على الاقتصاد اليوغوسلافي كان كبيراً: دمار معظم شبكة المصانع والطرقات والجسور والسكك الحديدية ووسائل المواصلات والاتصالات، والمصفاتَين الرئيسيَّتين اللتين تغذّيان البلاد. وتشير التقديرات الى أن تدمير المصانع أوقف عن العمل نحو 000 40 عامل أضيفوا الى نصف مليون شخص أصبحوا في العراء، و000 100 آخرين غادروا البلاد التي، إزاء هذا الوضع الاقتصادي المنهار، عادت ثلاثين سنة الى الوراء

وبلغت خسائرها مئات ملايين الدولارات بحسب التقديرات الأولية. ففيما كان معدّل دخل الفرد اليوغوسلافي 3000 دولار سنوياً عام 1989، جعلته العقوبات الاقتصادية المفروضة عام 1992 يهبط الى 1650 دولاراً عام 1997. وعن البروفسور دين كيتش (منسّق فريقٍ من 17 خبيراً اقتصادياً يعمل بعضهم لدى صندوق النقد الدولي والبنك الدولي) سينخفض دخل الفرد اليوغوسلافي الى 1000 دولار عند نهاية الحرب. ويقدِّر هؤلاء الخبراء أن نسبة البطالة التي كانت 27٪ ستبلغ الضعف بسبب كوارث الحرب.

في هذه الأثناء كان مسؤولو "الحلف" العسكريون يضعون جدولاً "متناقضاً" بنتائج تدخّل قواتهم. فالظاهر أنَّ الضربات الجوية وثّقت العلاقات بين ميلوسيفيتش وقادة جيشه (وهو عكس ما كان يؤمَل) وتعاظمت صورة الجيش اليوغوسلافي في عيون السكان. وعن خبيرٍ قوله: "لم يعد الجيش وسيلةً في خدمة ميلوسيفيتش، بل درعاً يحمي البلاد من هجومٍ خارجي".

وعن مسؤولٍ في البنتاغون أن بين 10٪ و20٪ من المصفحات الثلاثمئة الموجودة في كوسوفو دُمِّرَت كلياً ولم يعد في قدرة القوات الصربية القيام بهجماتٍ فاعلة. غير أن هذا كان عند الصرب أقلَّ أهميةً من قناعتهم بأنهم حققوا هدفهم الأكبر: إفراغ إقليم كوسوفو من سكّانه الألبان. بعد ذلك اعتمد العسكريون الصرب خطةً دفاعية: استخدام المدارس والمستشفيات والمزارع للاختباء فيها مع معدّاتهم. وعن خبير البنتاغون نفسه: "عمِلوا على هدفَين: الاحتماء من الضربات الجوية وحماية مدَّخراتهم النفطية".

أمام هذا، أخذ واقعٌ يفرض نفسه أكثر فأكثر على المسؤولين العسكريين الأميركيين: لا يمكن الحرب الجوية وحدها أن تُخضع عدواً.

وعن أحدهم قوله: "تعلّموا من أمثولات فيتنام، فقصفنا الجوي لم يُوقِف تقدُّم فرق هو شي منه.. وما يفسِّر مقاومة القوات الصربية في كوسوفو تهيُّؤ رؤساء الوحدات سلفاً لمواجهة ضربةٍ قاسية، لذا استعدوا لها طويلاً، ولن نستطيع أن نطيح معنوياتهم في ثلاثين يوماً".

عند نهاية اجتماع ترأسّه ويسلي كلارك (بروكسيل-1999/4/27) قال: "قد تكتشفون بأن ميلوسيفيتش ضاعف قواته هناك" معترفاً ضمنياً بأن القوات الصربية في كوسوفو ما زالت بالعدد نفسه (000 40 عنصر) كما كانت عند إطلاق الضربات الجوية قبل ستة أسابيع. وفي تلك المداخلة قال كلارك: "ميلوسيفيتش سيظل يضاعف قواته باستمرار، حتى نقطع عليه طُرق التموين ونضاعف ضرباتنا أشرس ضدَّ قواته التي تضاعفت أصلاً في الأيام الأربعة الأخيرة بالتحاق الاحتياطيين (الذين يعوِّضون عن الذين سقطوا) وبالدعم المستمر من الجيش اليوغوسلافي الثاني المتمركز وراء الحدود في مونتينيغرو. من هنا علينا أن نضرب بانتظامٍ جميع البنى التي تشكّل هيكلية سلطة ميلوسيفيتش. على أنني لا أدري كم سيستغرق هذا النوع من الضرب". واعترف كلارك بأن رداءة الطقس أرغمت قوات "الأطلسي" خلال 35 يوماً من القصف على إلغاء 50٪ من الطلعات المتوقّعة، وتمكنت 4423 طلعة من تعطيل شبكة الدفاع الجوي بتدمير ما يزيد عن 70 طائرة و25٪ الى40٪ من بطّاريات الصواريخ اليوغوسلافية. أما وسائل المواصلات العسكرية فخسائرها معتدلة الى فادحة، وعن معاوني القائد الأعلى لـ"الأطلسي" أن ثلث احتياطي نفط الجيش فقط دُمِّر. ويُقدِّر كلارك أن الصرب هجَّروا 000 700 ألباني خارج كوسوفو وشردوا داخل الإقليم نحو 000 820 نسمة.

في واشنطن، اليوم التالي (1999/4/28) صوَّت مجلس الشيوخ (بموافقة 249 صوتاً ومعارضة 180) على أن تَخضعَ لموافقة الكونغرس عملية

نشر القوات البرية في كوسوفو. ولكن مفاجأة سيئة كانت تنتظر البيت الأبيض بعد ذلك: فشل اقتراحٍ قدّمه الديمقراطيون (بتعادل الأصوات: موافقة 213 صوتاً ومعارضة 213) لدعم الرئيس في مواصلة القصف الجوي. وصادف هذا الحدث في أسوإ أوقات الرئيس الأميركي الذي كان يهيئ الرأي العام الأميركي لحرب طويلة يأمل الحصول لها على موافقة الكونغرس الفورية بتحريك ستة مليارات دولار إضافية لتمويلها.

بعد ساعاتٍ كان الرئيس الأميركي يقِفُ في الحديقة الخلفية للبيت الأبيض يُعلنُ أمام الكاميرات تكثيف ضربات "الأطلسي" الجوية رغم رداءة الطقس فوق صربيا وكوسوفو: "المعروف تاريخياً أنَّ الطقس في هذه المنطقة هو في أيار/مايو أفضل منه في نيسان/أبريل، وهو في حزيران/يونيو أفضل منه في أيار/مايو، وهو في تموز/يوليو أفضل منه في حزيران/يونيو". وكان هذا الرهان الجريء على حالة الطقس رسالةً فهمَها الجميع: قد تستمر الحرب أشهراً بعدُ، ولن يغيِّر الرئيس من خطته بمواصلة القصف الجوي من دون نشر أي جنديٍّ على الأرض.

في اليوم نفسه واجه البيت الأبيض مشكلةً جديدة: طار القس الأسود جيسي جاكسون الى بلغراد (على رأس بعثةٍ من رجال دين) لمقابلة الأسرى الأميركيين الثلاثة ومطالبة ميلوسيفيتش بإطلاقهم. وعن مرجعٍ كبيرٍ في البيت الأبيض: "هي ذي البادرة التي كنا نحن نخشاها وميلوسيفيتش يأملُ أن تحصل". وجيسي جاكسون (مرشّح سابق للرئاسة) شخصٌ عنيد لا يمكن إقناعه ولا مراقبته، وله تأثيرٌ كبير على السود الذين يمنحون معظم أصواتهم للديمقراطيين. وعن مسؤولٍ ديمقراطي كبير: "لا يمكن تجاهله، كما لا يمكن الضغط عليه". هذا الصراع واجه الرئيس كلينتون الذي- على أثر الصعوبات العائلية الناجمة عن مشكلته مع مونيكا لوينسكي- استدعى القسّ جاكسون "المستشار الروحي" لعائلة كلينتون. ومما يلفت لدى جاكسون أنه

يستقطب الإعلام فوراً لاشتهاره باعتماد خطةٍ مزدوجة دائمة: الديبلوماسية الرديفة وتحرير الأسرى الأميركيين في الخارج. فهو عام 1984، حصل من سوريا على موافقتها بتحرير طيّار سقطت طائرته في لبنان، كما تمكّن من إقناع فيديل كاسترو بإطلاق 21 أميركياً و26 كوبياً سُجِنَ معظمهم للاتجار بالمخدرات. وفي حرب الخليج، تمكّن من إقناع صدّام حُسَين بترحيل 500 أجنبي كان احتجزهم "ضيوفاً" على النظام العراقي. وغالباً ما يتباهى جاكسون بأنه "محاورٌ جيِّد". ووجَد مراقبٌ سياسي أنّ تلك الزيارة الى بلغراد (بتدبير من فلاديسلاس جوفانوفيتش، سفير يوغوسلافيا لدى الأمم المتحدة، ومن البطريرك بافيل، أعلى مرجع للكنيسة الأرثوذكسية في يوغوسلافيا) كانت "شوكةً مؤلمةً مغروزةً تحت ظفر الرئيس الأميركي" الذي عبثاً حاول إقناعه بإلغاء زيارته أو تأجيلها، لكن "المستشار الروحي" واجهه بقلق عائلات الجنود المحتجزين، وبنيّته جعل هذه الزيارة "واسطة سلام" مضيفاً: "سوف نطلق نداءً أخلاقياً لتحرير جنودنا الثلاثة". وإذ أفهمه كلينتون أنَّ هذه الزيارة قد تكون إشارةً يفهمها ميلوسيفيتش خطأً بإمكان فتح الفرصة للتداول في شروط "الأطلسي" لإنهاء الحرب، أجاب جاكسون: "لن أتداول مع ميلوسيفيتش إلاّ في إطلاق الأسرى ووقف القصف". ووصل الحوار بين الرجلين الى طريق مسدود.

تمَّ تكليف ساندي برغر باستعمال لغة اكثر حدّة فاستدعى في اليوم التالي جاكسون والبعثة المؤلفة معه، وأعاد تأكيد موقف الإدارة الأميركية: "نفضِّل ألاّ تتم هذه الزيارة". وأضاف كما ليُقلق الحاضرين: "لا يمكننا أبداً أن نضمن سلامتكم من قصف "الأطلسي" على بلغراد". لكن هذا التحذير لم يخفِّف من حماسة الحاضرين الذين هيّأوا لزيارتهم رسائل صوتية من عائلات الجنود، إحداها من طفلٍ في الرابعة ينادي أباه الجندي. وشدَّدوا أمام

برغر على أنّ هذا العامل الإنساني المؤثّر هو في أولوية مهمتهم. وبعد 45 دقيقة من الحوار، أرخى برغر يديه إيذاناً بفشل الحديث.

تمّت زيارة جاكسون لبلغراد تماماً كما كان كلينتون يخشاها: استقبل ميلوسيفيتش البعثة في أحد أكبر صالونات القصر الرئاسي وتعمّد إبراز هذا اللقاء إعلامياً. ونشرت ماري أوكونر حديثاً (في جريدة *"لوس أنجلس تايمز"* نقلته عنها جريدة *"كورييه إنترناسيونال"*) مع الدكتور نظيرالدين خاجَه (رئيس المجلس الأعلى للمسلمين الأميركيين، وكان يرافق جيسي جاكسون) جاء فيه: "دعانا القس جاكسون الى تشكيل حلقة كي نصلّي ممسكين بأيدي بعضنا بعضاً، مما فاجأ ميلوسيفيتش فلم يعد يدري ماذا يفعل، فيما جيسي جاكسون واقفٌ الى جنبه ممدود اليد، يتلو مقاطع من الكتاب المقدّس حول الأُسُود النائمة مع الأغنام. بعد ذلك عرض جاكسون الخطوط العريضة لهدف زيارة البعثة الأميركية: توقّف المجازر في كوسوفو وعودة المهجّرين الألبانِ المشرّدين داخل إقليمهم ونشر قوة حفظ السلام بإشراف الأمم المتحدة. أجاب ميلوسيفيتش أن "هذا الخطاب يتناقض تماماً مع وجهة نظره" ووصَف "الأطلسي" بالمعتدي، واضعاً نفسه في موضع الضحية وفي موقع "الزعيم الرؤيوي والشعبي". وغير مرّة أثناء الحديث كان ميلوسيفيتش ينفعل ضدَّ ما سمّاه "اعتداء "الأطلسي" والولايات المتحدة عليه". ومن حديث نظيرالدين خاجَه الى جريدةٍ أخرى قولُه: "كنتُ أعرف أنني أصافح يدَ رجلٍ مغمّسةً بالدم لكنني كمسلمٍ أميركي كنت مرغماً على ذلك من أجل السلام والعدالة".

في نهاية الاجتماع (وبعد صلاةٍ أخيرة) أجاب ميلوسيفيتش عن المطالبة بإطلاق الأسرى: "سأفكر بالأمر". ثمَّ انسحب الى لقاء ثنائيٍّ مع جيسي جاكسون دام 90 دقيقة، أولاً في مكتبٍ جانبيٍّ ثم مشياً في إحدى حدائق القصر الرئاسي. بعدها بقليل أعلن وزير الخارجية اليوغوسلافي

للأميركيين نبأ إطلاق جنودهم الثلاثة. اتصل القس جاكسون فوراً بساندي برغر الذي (كما نقل عنه أحدُ معاونيه) لم يُبدِ حماسةً لتَلقّي النبإ لأن إطلاق الجنود الثلاثة كان خبراً جيداً إنما يبقى الأهم: نتائج الإطلاق.

طلب جاكسون من برغر التدخل لدى "الأطلسي" لتعليق القصف (ما كانت تخشاه الإدارة الأميركية). وحين قال جاكسون لبرغر: "يجب أن يتوقف القصف لأن جنودنا محتجَزون في ثكنة عسكرية، ومن السخرية المأساوية أن تقتلهم قنابل قصفنا هذه الليلة فيما هم يتهيّأون للعودة الى منازلهم"، ظلّ برغر على اعتراضه فأعاد جاكسون علناً في وسائل الإعلام مطالبته بتعليق القصف، وأبدى توقُّعَه أن يكون ميلوسيفيتش مستعداً للدخول في مفاوضات جدية على أساس شروط "الأطلسي" الخمسة، وإمكان نشر قوات مسلحة دولية في كوسوفو وإنهاء أعمال العنف الإتنية ضدّ ألبان الإقليم.

ومع أن ميلوسيفيتش وكلينتون مختلفان تماماً في الشخصية، فثمّة جامعٌ واحدٌ بينهما: القدرة على إيهام محاوريهم بقبول حججهم وآرائهم. لكنهما في الواقع حرباويّان محنّكان انزلقا في مأزقٍ يحاولان الخروج منه بالطريقة الفضلى، ويخبئ كلّ منهما، عند اللزوم، عدةً خيارات.

إطلاق الجنود الأميركيين الثلاثة الأسرى تصدّر جميع نشرات الأخبار في الولايات المتحدة وألهى الرأي العام عن سلبية الزعيم الصربي، حتى أنّ مراقباً رجَّح "اعتقاد ميلوسيفيتش بأن الشعب الأميركي إذ يستعيد جنوده الثلاثة لن يعود يعتبره شيطاناً رجيماً".

في واشنطن كانت الحسابات تجري في مناخٍ ملبَّد: أعضاء في الحكومة اتهموا مادلين أولبرايت بسوء تقديرها ميلوسيفيتش. وعن مسؤول أميركي كبير: "أمضينا أشهراً نقنع الرأي العام بضرورة أن نوقف تهوُّر هذا

الهتلر الصغير، وخلال ذلـك لم نتهيأ للحـرب ضـدّه ولا تصوَّرنـا حـلاً معـه تفاوضياً أو عسكرياً".

وبدا في إدارة كلينتـون تنـاقضٌ لافـت: مـع أن القـدرة الأميركيـة لم تعرف في تاريخها طاقةً بهذا الحجم، ولا سيطرةً كهذه على الشؤون العالميـة، فسيِّد البيت الأبيض متردِّدٌ وفاقدٌ كلَّ رؤيـة بعيـدة للملفـات المعروضـة عليـه للمعالجة. وعن مسؤول أوروبي: "في موضوع كوسـوفو، لم يكـن يتصـرف كقائد تاريخي. لم يقل لنا مرةً بوضوحٍ ماذا يريد، ولا كنا نعرف ما الذي لا يريده. وربما هو نفسه لم يكن يعرف".

في تلك الفترة، نشر وزير الخارجية السابق هـنري كيسـنجر (الخبـير بالشؤون الجيوسياسية) مقالاً في الـ*"نيوزويك"* أوضح فيـه أن طـرح مشـكلة النزاع لم يكن صائباً. ومما جاء في المقال:

"حرب كوسوفو نتيجةُ نزاعٍ عمرُه قرون، جرى على الخط الفـاصل بين الأمبراطوريتين النمساوية والعثمانية، بين الإسلام والمسيحية، بين القومية الألبانية والقومية الصربية. فتلك الجماعات الإتنية لم تتعايش بسلامٍ إلاّ حـين كان التعايش مفروضاً عليها من الحكم الأجنبي أو من ديكتاتورية تيتو.

ميلوسيفيتش ليس هتلر بـل قرصـان مـن البلقـان، وليـس للأزمـة في كوسوفو أيُّ شبَه مع الأحـداث الـتي سبقت الحـرب العالميـة الأولى. وكمـا يردد الرئيس كلينتون دائماً: "ليس ميلوسيفيتش، ولا أيُّ قائد آخـر في بـلاد البلقان، قادراً على تهديد التوازن العالمي". صحيح أن ميلوسـيفيتش يتحمـل المسؤولية العظمى في مجازر البوسنة، لكن الحرب في كوسوفو (علـى عكـس الحرب في البوسنة) هي من أجل أرضٍ يعتبرها الصرب ثروة وطنيـة، ولـذا لم تقُم في بلغراد مناهضةٌ كاملة لسياسة ميلوسيفيتش في كوسـوفو. صحيـحٌ أن شرارة الحرب العالمية الأولى اندلعت من البلقان، إنما ليـس بسبب صراعـات

إتنية داخلية بل على العكس بسبب تدخّل القوى الخارجية في النزاع الداخلي: قيام قومي صربي باغتيال ولي عهد النمسا أدى الى حرب عالمية لأن روسيا كانت تدعم صربيا وفرنسا تدعم روسيا، فيما كانت ألمانيا تدعم النمسا" (انتهى الاستشهاد من مقال كيسنجر) .

في 1999/4/12 كان إيلي ويزل يلقي في البيت الأبيض محاضرة بعنوان "مخاطر اللامبالاة"، ذكَر فيها روزفلت و"قيادته معركة ضد الشر". وعن حاضرين يومها، أن كلينتون وزوجته هيلاري كانا ينصتان باهتمام. وختم ويزل: "أنا سعيد بأن العالم اليوم لم يعد يقف صامتاً أمام الجرائم المرتكَبة ضد الانسانية". ودخل هذا الكلام عميقاً في قلب الرئيس الأميركي الذي يقول مقرّب منه إنه "كان مقتنعاً بضلوعه في حرب عادلة، لكن عدلها لم يكن يرضيه كلياً، لأن فكرة الدخول نفسَها في حربٍ لم تكن ترضيه".

فيما كان القس جيسي جاكسون يغادر بلغراد مع السجناء المحرَّرين، كان ميلوسيفيتش يحيّي تلك البادرة بقوله: "هذا جهد حقيقيٌّ في اتجاه السلام".

كانت العاصمة اليوغوسلافية، فترتئذٍ، ملتقى المبعوثين. الجمعة 1999/4/30 اجتمع ميلوسيفيتش طوال ست ساعاتٍ بمبعوث موسكو الخاص فيكتور تشيرنوميردين الذي ألمح بعدها الى تحقيق "تقدُّمٍ أكيد" نجمَ عن اللقاء، والى أن الرئيس اليوغوسلافي أبدى استعداداً للسماح بنشر مراقبين من الأمم المتحدة في كوسوفو، يحملون أسلحة خفيفة، ويكونون من بلدان "الحلف" كاليونان وإيطاليا. وبذلك كان ميلوسيفيتش (وهو سيد الغموض والمحاور المحنّك الذي يسميه القادة الإنكليز "محترف الإبادة الإتنية") يطبّق مبدأ "من المفيد أن تفاوض دائماً، أن تفاوض طويلاً وتكراراً، خاصة إذا كنتَ غير مصمم على الاستسلام".

في ذلك اليوم نفسه، أدلى بحديثٍ (الثاني له منذ اندلاع الحرب) الى صحافي أميركي محنّك هو الآخر (أرنو دو بورشغراف، من وكالة "*يونايتد برس*") ظهرت فيه تفاصيل واضحة لحالته ونظرته ونواياه. فهو تحدّث عن الخطط الأميركية بكل سخرية: "قادتُكم الأميركيون ليسوا ماهرين في الخطط، بقدر مهارتهم في التسلية القصيرة المدى. قالوا: "نقصف يوغوسلافيا ثم نفكر في ما نفعل بعدها". وذهب بعضهم الى القول إن "ميلوسيفيتش سيسلّم كوسوفو بعد أيام قليلة من القصف الجوي". لكن قوات "الأطلسي" ارتكبت خطأً فادحاً في حساباتها: لم تكن مستعدّة لدفع ضحايا مقابل استسلامنا". وعن نوع الحضور الدولي الذي يرضى به في كوسوفو، أجاب: "لا مكان للقوات العسكرية. وماذا ستفعل هذه غير إتلاف طرقاتنا بدباباتها المجنزرة؟ بينما قواتٌ تحت إشراف الأمم المتحدة تكونُ مزوَّدةً بأسلحة دفاعية لا هجومية. من هنا أن المساومة مع قوات "الأطلسي" تبدأ بعد سحب هذهِ قواتِها المتمركزةَ حالياً على طول الحدود مع ألبانيا ومقدونيا، وعندها نسحب قواتنا الصربية من كوسوفو"...".

وغير مرة خلال هذا الحوار، أكد رفضه كلَّ قوة أجنبية في كوسوفو قد تتحول "قوة احتلال". لذا هو يرضى بقواتٍ للأمم المتحدة تتشكّل من إيرلندا وروسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء. واتهم مؤتمر رامبوييه بـ"الديكتاتوري" القرارات، لأنه اقترح نشر 28 000 عنصر ليكون بينهم 4000 جندي أميركي مجهَّزين بأسلحة ثقيلة ودبابات ومصفحات للتنقُّل، وهذا "غير مقبول" إطلاقاً لأن كوسوفو في حاجة الى مساعدة لا الى سلاح". وعن ملاحظة "الأطلسي" بأن قواته تتضاعف باستمرار وأنه قد يكون حشد 40 000 جندي في كوسوفو، قال إنه بالأحرى رفع العدد من 40 000 الى 100 000 بعدما تناهى إليه أن أصواتاً في مقر "الأطلسي" تطالب السياسيين بإعطاء أوامرهم لنشر القوات البرية.

وأطلق ميلوسيفيتش، في حديثه الى آرنو دو بورشغراف، حملة مركزة على جيش تحرير كوسوفو متهماً إياه بتصميمه على "تأسيس دولة إتنية صافية العِرق"، مضيفاً بأن هذا هو "عكس ما يجري في العالم حالياً حيث تتجه القرية الكونية الى تأسيس دول عرقية مختلطَة".

الفصل السادس عشر

قبل ربع ساعة من منتصف ليل الجمعة 1999/5/7 قامت طائرة "ب2" (المعتَبَرَة "ثورية" لأن الرادار لا يطالها) بإطلاق ثلاث قنابل كانت كافيةً لتُدمِّر كلياً مبنى السفارة الصينية في بلغراد، ضاربة بذلك خطة "الأطلسي" وجهوده لإيجاد حل تفاوضي، مضيفةً علامةً أخرى الى جنون هذه الحرب "العاليةِ التكنولوجيا" وغموضها وأوهامها وحدودها.

وكانت طائرة "ب2" أقلعت من قاعدة وايتمان (ولاية ميسوري)، بقيادة طيار قد يكون هو الذي يقصده مقال في جريدة *"وول ستريت جورنال"* (نقلته عنها *"كورييه إنترناسيونال"*) جاء فيه أنه "غادر القاعدة (100 كلم غربي كانساس سيتي) باتجاه كوسوفو فأطلق عشر قنابل من 900 كلغ، وقفَل عائداً الى قاعدته، ثم الى بيته حيث استقبلته زوجته بقبلة ترحيب قائلة: "جُزّ العشب الأخضر أمام المنزل فيما أجمع الأولاد لنذهب معاً الى مطعم البيتزا احتفاءً بالعيد". وكانت تقصد بالعيد نهايةَ مهمته الأولى. وعن زوجة طيار آخر على "ب2": "صادفَت مهمتُه الأولى يومَ عيد ميلاده، وهيأتُ له غداءً وكعكة العيد. كما صادف اليوم التالي اشتراك ولدنا بأول مباراة له في كرة القدم، وسجَّل فيها هدفاً". واعترفَت تلك الزوجة بغرابة شعورٍ لديها تجاه زوجها الذي "طار يلقي القنابل وعاد الى البيت ثمَّ تابع مباراةً في كرة القدم يشارك فيها ولده".

كان الدخان لا يزال يتصاعد من مبنى سفارة الصين في بلغراد (سقط فيه ثلاثة قتلى وعشرون جريحاً) حين بدأت في بكين مظاهراتٌ (بإشراف رجال الشرطة) حاصرت سفارة الولايات المتحدة مطلِقةً هتافات ضدَّ كلينتون وأولبرايت. وفي الأكاديمية المركزية للفنون الجميلة (بكين) كان الطلاب يعرضون ملصقاً مستوحىً من *"غيرنيكا"* بيكاسو يظهر فيه وجه

كلينتون يتأمل المجزرة. وانتشرت في شوارع المدينة يافطاتٌ ساخرةٌ حملت إحداها عبارة: "كلينتون، نحن لسنا مونيكا".

كان قائد الجيش الأميركي الجنرال شلتون أوّل من أخبر الرئيس الأميركي الذي غادر شقّته فوراً وهرع الى غرفة العمليات حيث أخذ الخبراء ينقلون إليه المعلومات دقيقةً فدقيقة. وعن أحد معاونيه أنه "بدا قلِقاً جداً لأن الفاجعة وقعت في أسوإ الأوقات إذ لو كان من مبنًى يجب تجنُّبُ قصفه في بلغراد فهو مبنى سفارة الصين التي كانت واقفةً على الحياد في تلك الحرب معتبرةً أن لا مصلحة وطنية لديها تدافع عنها في البلقان، إضافةً الى كون الصين تملك حقَّ الفيتو في مجلس الأمن". وعن موظَّفٍ كبيرٍ في البيت الأبيض أنْ "حين وَضُحَ لكلينتون حجم الكارثة في بلغراد وانعكاسها على الملف الديبلوماسي سارع الى الاتصال بالرئيس الصيني يانغ زيمين، لكنه لم يفلح".

في موسكو انفجر غضب يلتسين وطلب من وزير خارجيته إيغور إيفانوف إلغاء زيارةٍ له من ثلاثة أيامٍ الى سكوتلندا بدعوة من نظيره الإنكليزي روبن كوك. وكان هذا ينتظره في منزله (إدمبره) ليصحبه الى مشاهدة أوبرا "عايده"، ثمّ الى إحدى مَقْطَرات المَالتْ السكوتلندي الشهيرة في المدينة. وكان من أهداف لقاء كوك وإيفانوف تنسيق المواقف بعد اجتماعهما قبل أيام (الخميس 1999/5/6) في بون حيث استقبل الوزيرَ الروسيَّ نظراؤُه وزراءُ خارجية الدول الصناعية السبع. وإذ انفرد الألماني بينهم يوشكا فيشر بأوّل لقاءٍ ثنائيٍّ مع إيفانوف، اقترح عليه هذا الأخير إعلان وقفٍ إحاديٍّ للقصفً ولو لـ24 ساعة، مضيفاً: "أؤكّد لكم أن هذا سيستتبع موقفاً إيجابياً من بلغراد". لكن فيشر رفض الموضوع فوراً مؤكّداً موقف الحلفاء: "لا وقف للقصف قبل انسحاب القوات الصربية من كوسوفو". وخلال اجتماع وزراء الدول الصناعية دافع الغربيون عن فكرةٍ تبنتها قمة واشنطن لنشر قواتٍ عسكرية دولية تضمن عودة المهجرين. وفيما

شدَّدت روسيا على أن تكـون تلـك "قـواتِ أمـنٍ مدنيـة" أصرّ الأمـيركيون والإنكليز على ضرورة أن تكون "قواتٍ عسكريةً"، وهو ما رفضه إيفانوف. غير أن المجتمعين اتفقوا على نقطتين: ضرورة أن تحمي تلك القواتُ اللاجئين العائدين، وأن تجرِّدَ مسلّحي جيش تحرير كوسوفو من أسلحتهم. وصدر عن اجتماع وزراء الدول السبع بيانٌ ختامي وقّع عليه الوزيـر الروسي في وثيقـة من سـت نقـاط: 1) انسـحاب جميـع القـوات الصربيـة، 2) العـودة الكاملـة والآمنـة لجميـع اللاجئين، 3) الوقـف الفـوري والمراقَـب لأعمـال العنـف والضغط، 4) نشر قوات مدنية فاعلة (شدَّد روبن على ذكر كلمـة "فاعلـة") بإشراف الأمم المتحدة، 5) إنشاء إدارةٍ انتقالية يعيِّنها مجلس الأمن، 6) تثبيتُ اتفاق يؤدي الى نظامٍ يؤسس حكماً ذاتياً يـأخذ في الاعتبـار مقـررات مؤتمـر رامبوييّه وأبرزها سيادة يوغوسلافيا على كامل أراضيها وتجريد جيش تحرير كوسوفو من سلاحه.

وعن ديبلوماسيٍّ أوروبي: "تفاءلنا كثيراً عند توقيع هذه الوثيقة لكنّ تفاؤلنا كان ساذجاً في حينه، لأن موسكو لم تكن ذات أهدافٍ واحـدة مـع دول "الأطلسي"، ولم تكن تفسِّر المجريات بالطريقة نفسها".

تركَت مباحثاتُ بون نقاطاً كثيرة معلّقة، بينهـا تحديـد تلـك "القـوة الدوليـة" (تشـكيلها، مـدة خدمتهـا، تسـليحها، ...)، حجـم الانسـحاب العسـكري الصربـي مـن كوسـوفو وكيفيـة ارتبـاط هـذا الانسـحاب بإنهـاء القصف، تقريرُ أن يكـون الحلّ مفروضـاً علـى بلغـراد أو بالتفـاوض معهـا. وكانت هذه النقاط ستتوضّح لو تمَّ اللقاء في سكوتلندا بين إيغـور إيفـانوف وروبن كوك، فتبادر موسكو بعدها الى إقناع بلغراد بهذا الاتفاق.

بعد أيامٍ من ذلك، وجـد الغربيـون أنفسـهم مرغمـين علـى تلطيـف لهجتهم لأن تدمير سـفارة الصـين دفـع موسـكو الى تشـديد لهجتهـا وإعـلاء

سقف مطالبها. وذكّر وزير الخارجية الروسي نظراءه أنهم في وثيقة بون شدّدوا على أنْ يضمن كلُّ اتفاق سيادةَ يوغوسلافيا كاملة على أرضها (كان إيفانوف بذلك يجيب على طريقته عن أسئلةٍ كانت ستطرح في لقاء سكوتلندا). وأضاف أنَّ نصَّ الوثيقة لا يحدِّد انسحاب "جميع" القوات الصربية بما فيها القوات المناصرة للجيش، وتالياً لا تدخل كوسوفو أيةُ قوة حماية إلاّ بعد التصويت على قرارٍ بشأنها في مجلس الأمن، حيث تمسك موسكو وبكين بمقعدين رئيسيين وبحق الفيتو كعضوين دائمين في ذلك المجلس.

عندئذٍ تنبّه الحلفاء الى أنهم وقعوا في الفخ، بعدما كانوا يأملون الوصول الى نجاح التصويت في مجلس الأمن على قرار يحدِّدُ القوات الدولية وقوات الأمن شكلاً ومحتوى. غير أن موسكو ظلّت متمسكةً بتشديدها على وقف القصف وقبول بلغراد بالقرار الجديد.

في مقرّ "الأطلسي" (بروكسيل) كان الوضع يتأزّم أيضاً، إذ انتقد مسؤولون عسكريون أميركيون علناً خيارات ويسلي كلارك، وبدأوا يُلمحون الى أن مواصلة القصف الجوي بدون مخططٍ بديل ستؤدي الى الفشل. فعن روبن كوك قوله: "لن نراوح مكاننا في مقدونيا بانتظار الوقوف أمام الكاميرات بالقبعات احتفاءً بتوقيع اتفاق"، وعن وزير الخارجية الفرنسي هوبير فدرين قوله منزعجاً: "لم يتم خلال قمة "الأطلسي" في واشنطن بحثُ موضوع نشر القوات البرية، ومن يومها لم تتغير خطة "الحلف"...".

وكان شيراك في حلقاته الخاصة مغتاظاً من موقف بلير إذ كان يرى فيه أكثر المتصلّبين بين مسؤولي "الحلف" كأنما "يريد أن يكون تشرشل

آخر". وعلّق مسؤولٌ إنكليزيٌّ كبير بسخريةٍ على ذلك قائلاً: "وشيراك، لن يكون ديغول آخر".

طار شرودر الى بكين في زيارة قصيرة من بضع ساعات كي يقدّم اعتذار أوروبا لقصف السفارة الصينية في بلغراد، فاستقبله الصينيون ببرودةٍ صدمته.

في تلك المرحلة، كان "الحلف" يعاني فعلاً من انقسامٍ حاد بين أعضائه، وإرهاق متزايد من حربٍ تبدو بلا نهاية.

والتفتت جميع الأنظار الى واشنطن و"سرّ البيت الأبيض" (كما سمّاه أحد المراقبين): ما تكون نوايا كلينتون "الذي بدأ يضعف موقفه ويزيد صمته؟"، فتدمير المبنى الصيني هزّ قناعاته، واعترفت المخابرات الأميركية بخطإها في قصف ذاك الهدف، وواجه جورج تُونيه (حين استدعاه الرئيس الأميركي الى المكتب البيضَوي) كلاماً صاخباً وقاسياً لأن وكالة الاستخبارات هي التي أرسلت الى قيادة "الأطلسي" معلوماتٍ مغلوطة، مستندة الى خريطة لبلغراد عمرها ثلاث سنوات كانت خلالها سفارة الصين نقلت من مبناها القديم الى المبنى الحالي (وكان يومها شركةً متخصصةً في تجارة الأسلحة) على مئات الأمتار من المبنى القديم.

كان كلينتون قلِقاً من الموقف الروسي، بعدما كان متكّلاً على موسكو للحصول من بلغراد على اتفاقٍ تفاوضي. ولذلك راعى يلتسين كثيراً. فإذ هو لا يتحدّث على الهاتف أكثر من خمس دقائق، كان يُمضي مع الرئيس الروسي 90 دقيقة. متحمّلاً وصامتاً، لمعرفته أنَّ كلَّ طريقٍ ديبلوماسي يمرّ بالروس إذا لم يسعَوا هم الى قطع هذا الطريق.

أمران كان يخشاهما سيد واشنطن والحلفاء: ألاّ تكون لدى موسكو إرادة الوصول الى اتفاق سلام، وأن تكون لديها النية على إذلال

"الأطلسي". فمن كلامٍ ليلتسين في الكرملين قوله: "إذا استمرّ تجاهل جهود روسيا في الوساطة، سننسحب من المفاوضات، فلسنا نحن من يشترك في هذه الحرب ولسنا نحن من أشعلها، ويبدو أن نداءاتنا واقتراحاتنا لا تصل الى المعنيين بها". وكان ستروب تالبوت (نائب وزيرة الخارجية) بعد لقائه وزير الخارجية إيفانوف، صرّح أنّ "تكثيف عمليات "الأطلسي" تهدّد استمرار المفاوضات".

قبل بدء الضربات الجوية، كان 45 000 كوسوفي لجأوا الى ألبانيا. وها هم بلغوا (في أيار/مايو) نحو مليون تغصّ بهم الدول المجاورة، فيما القوات الصربية تواصل عمليات تطهيرها، رغم معدَّل 700 طلعة جويّة من أسطول "الأطلسي" الذي فاق عندئذٍ 1000 طائرة.

"إنني حققت حلماً" قال ذات يومٍ مارتن لوثر كينغ أحد المُثل العليا لدى بيل كلينتون الذي كان يخشى ألاّ يتحقّق حلمه هو عند مغادرته الرئاسة بعد نحو عام، وأن تسبِّب هذه الحربُ سقوطَ المرشّح الديمقراطي نائبه آل غور. فعن أحد المقرَّبين من كلينتون أنّهُ "بعد إقفال ملف مونيكا لويسنكي كان يحلم باستعادة هيبة رئاسته حتى يغادرها وهو في قمة الألق، تاركاً للتاريخ وذاكرة الأميركيين ذكرى رئيسٍ حقّق قوة أميركا ورفاه الأميركيين. غير أنه، عوض ذاك الحلم، كان يرى قلِقاً اقترابَ شبح فيتنام أخرى، الفيتنام نفسها التي كان يُصارِع كي لا يكرِّرها".

عن برانت سكوكروفت: "لو كنت ميلوسيفيتش لكنت أكثر تفاؤلاً من البداية، إذ ثبُتَ تضعضُعُ جميع الإشارات التي أُرسلت إليه، بينما نحن لم يصدر عنّا إلاّ تصاريح تؤكّد عزمنا على استمرار القصف".

والحاصل فعلاً أنّ أخطاء القصف كانت تتراكم، وويسلي كلارك يصرُّ على جعل "الأطلسي" يتخذ القرار السياسي السريع بنشر قوات برية

على حدود كوسوفو. وعن خبير في البنتاغون: "لم يعد بيل كلينتون، عند هذا الحدّ، يستطيع تأخير لحظةِ قراره. فلا يتطلّب عبقرياً في الشؤون العسكرية فَهْمُ أنْ لن يستتبّ الاستقرار والأمن في تلك المنطقة بدون قوّةِ تدخُّلٍ وسيطةٍ كان بديهياً نشرُها منذ البدء لكن الرئيس قرَّر تجاهلها".

كان ملحّاً أن يصدر قبل منتصف حزيران/يونيو قرار نشر قوة عسكرية ضمن ظروفٍ (مناخية) سليمة على أرضٍ صعبةٍ كما في كوسوفو. لكن القرار خطير النتائج، ويتضمَّن مخاطر وقوع خسائر كبرى في الأرواح.

رسمياً، بدا أنَّ الرئيس "يستشير". وفي 1999/5/21، أعلنت الإدارة الأميركية دعمها لنشر 50 000 جندي على حدود كوسوفو. وعن مراقبٍ خبير أنَّ "كلّ هدف ميلوسيفيتش: تأخير المجريات ومَطُّها حتى آخر الصيف حين يصبح نشر قواتٍ بريةٍ متعذّراً بسببب الطقس. لذلك كان يماطل في المفاوضات مراهناً على إرهاق خصومه وتواطؤ موسكو معه. وبدا ميلوسيفيتش في كلٍّ هذا كمحتلٍّ أرضاً بشكلٍ غير شرعي، ويسكن بيتاً ليس له، وينتظر بلهفةٍ وصول الشتاء حين لن يستطيع أحدٌ عندئذٍ إخراجه".

عن ديبلوماسيٍّ غربيٍّ قوله: "لا أعرف كيف ستنتهي هذه الحرب، لكنني أعرف أن مناخاً سوريالياً لا منطقياً ولا واقعياً كان يخيِّم على اجتماعات عديدة في مقرّ "الأطلسي". فممثلو دول "الحلف" التسعة عشر كانوا يختارون بدقّةٍ أهدافاً يجب تدميرها، ثمَّ يستطلعون مشاريع إعادة بناء يوغوسلافيا، ودراسة مصادر تمويل تساعد على إعادة البناء. من هنا قول مسؤول أميركي: "ليست صربيا بلداً يمكن التخلّي عنه كما فيتنام. فهي واقعةٌ في قلب أوروبا ولا يمكن إبقاؤها مدمّرةً وفقيرة"...". ذلك أن الدول الغربية، كانت خصَّصت 5 مليارات دولار لإعادة بناء البوسنة، واستشرفت 12 مليار دولار لإعادة بناء صربيا، وكان ذلك رقماً مفاجئاً إزاء الدمار

الحاصل. فعن رئيس خبراء مؤسسة "ليهمن" أنّ إعادة بناء جسر واحد في نوفي ساد يكلّف عشرة ملايين دولار.

كان في هذه "الحرب الخلقية" أمر "أخلاقيّ" لافت: قبل نهاية الحرب، تم اتهام ميلوسيفيتش بارتكابه "جرائم حرب" و"جرائم ضدّ الإنسانية". وعلى عكس نورمبرغ: دلّت العدالة الدولية على المذنب حتى قبل انتهاء الأحداث. لكن هذه (كما قدّرت سلطة قضائية مستقلّة) ليست أبداً عدالة المنتصرين، لأنّ ميلوسيفيتش، متهَماً بهذا الشكل، لا يعود صالحاً للمفاوضات.

إنما... أمام ضررٍ كبير قد يلحق بموسكو وواشنطن معاً، يصبح "متاحاً" عندئذٍ إبطالُ جميع الخطط الديبلوماسية التقليدية.

الفهرس

Eric Laurent

Guerre du KOSOVO

Le Dossier Secret

Texte Arabe

traduit par un comité de **l'Odyssée**

sous la direction de

Henri Zoghaib

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth - Liban

حرب كوسوفو

الملفُ السرِّيّ

هذا الكتاب يروي مأساةً، بل فاجعة. كان المراقبون والخبراء المتنوّرون يرونها واقعةً حتماً، بل مبرمجة.

في 24 / 3 / 1999 أطلقت 19 دولة في «حلف شمال الأطلسي» هجماتها الجوية ضد يوغوسلافيا. يومها، كان 45000 من سكان كوسوفو هربوا لاجئين إلى ألبانيا. ومع صدور هذا الكتاب، كانوا بلغوا نحو مليون، مكدّسين في المخيمات، ضحايا استراتيجية «تطهير إتنيّ» أطلقها سلوبودان ميلوسيفيتش.

إريك لوران تابع هذه الحرب يوماً فيوماً منذ يوم اندلاعها حتى انتهائها. وما سبقها من ظروف وما رافقها من ملابسات. فتتابع بيل كلينتون واقعاً تحت هاجس التهديد بعزله، وغيابه عن اجتماعات أزمة كوسوفو في البيت الأبيض، ثم مضاعفاً استشاراته الهاتفية مع حلفائه الأوروبيين. وتتابع المفاوضات بين الموفَدين الغربيين وميلوسيفيتش الرافض الانصياع رغم تعاظُم المجازر في كوسوفو. كما تتابع اللقاء الثنائي بين القائد الأعلى لقوات حلف شمال الأطلسي ويسلي كلارك الذي جاء الى بلغراد يهدد بالضربات الجوية فبادره الرئيس اليوغوسلافي: «أنت مجرم حرب». وتتابع أيضاً ما جرى في مقر قوات حلف شمال الأطلسي حين وقعت أُولى أخطاء القصف ضد المدنيين. وما جرى في أروقة البيت الأبيض حين فشل طوني بلير في إقناع كلينتون بإطلاق القوات الأرضية أيضاً.

كان إريك لوران سبّاقاً في وضع كتابه، أول كتاب في العالم يصدر عن حرب كوسوفو. ولتوثيق كتابه، التقى كبار المعنيين بتلك الحرب، وتابع (في واشنطن وبلغراد معاً) مفاوضات المبعوثين الغربيين مع ميلوسيفيتش. فراقب تفاصيلها، وخرج بانطباعات وتحليلات.

إريك لوران كاتب صحافي متخصص بالسياسة الخارجية، معروف بمتابعته هذا النوع من الأحداث. فهو صاحب كتاب «عاصفة الصحراء» الذي راج بشكل مذهل، وكتاب «حرب الخليج» (اشتراكاً مع بيار سالنجر) الذي حلّ (لأكثر من أسبوع) «أكثر الكتب مبيعاً»، وفور صدوره تُرجِم إلى الألمانية والإيطالية واليابانية وعدد من اللغات العالمية.

عويدات